ندا سليمان

رواية

كيفورك

رباط الحب

دار البشير

ندا سليمان

كيفوك

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: كيڤوك
التأليف: ندا سليمان
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 192 صفحة
عدد الملازم: 12 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018 / 26633
الترقيم الدولي: 2 - 628 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

كيڤوك

رباط الحـ5ـبّ

ندا سليمان

دار البشير للثقافة والعلوم

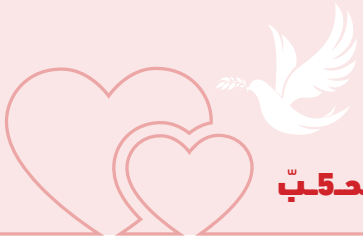

شكر

إلى ضياءِ عينيّ: «أمّي وأختي»

إلى الصّرْحِ الذي انطلقتْ منه أولى خطوات تحقيق الحلم

«دار البشير»

إلى مَن اقتطعوا مِن وقتهم الثّمين في الاطّلاع على هذا العمل المتواضع «ديما، أسماء، سماء، هبة» «أ. جمال علي»

إلى «كلّ مَن ساهم في خروج هذا العمل للنور»

شكرًا لكم جميعًا...

كيان البشير للثقافة والعلوم

وعدتُك أنْ لا أحبّك..

ثمّ أمام القرار الكبير، جبنتُ.

وعدتُك أنْ لا أعود..

وعُدت.

وأنْ لا أموت اشتياقًا..

ومتّ.

وعدتُ مرارًا.. وقرّرتُ..

أنْ أستقيل مرارًا..

ولا أتذكّر أنّي استقلتُ.

نِزار قبّاني

ليلةٌ استعارت لون جواد أدهم، امتزجَ سكونُها برياح الشّتاء فكوّنت عزيفًا مُخيفًا، ورغم قسوة برْد الشّتاء، هناك طفلةٌ في الخامسةِ تجلس وحيدةً فوق سطح أحدِ المنازل، الرّياحُ تضرب جسدَها الهزيل، لكنّها تُجابهها بعنادِ امرأة!

تبكي بصوتٍ مكتوم، وهناك على السّطح المُلاصق لمنزلها يقف صبيًّا ربّما في عِقده الأوّل، رآها فناداها، وحينما نظرتْ له لوّح لها، فازداد عبوسُها، وحادتْ ببصرها عنه عبْرَ بقايا السّور المتهدّم الذي كان يفصلُ بين البيتيْن، وجلس جانبها يسأل:

_ ماذا تفعلين هنا وحدَك في هذا الوقتِ يا صغيرة؟ ولماذا تبكين؟

رمقتْه بغضبٍ، ثمّ عقدت ذراعيْها أمام صدرها، وقالت:

_ أنا لست صغيرة.

ضحك وهو يُعيد صياغةَ السؤال:

_ حسنًا يا كبيرة، ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟ ولماذا تبكين؟

_ ليس مِن شأنك، هيّا ارْحل من هنا.

_ حسنًا، سأرحل، لكنْ خذي هذه أولًا.

نظرتْ للشيء الذي يمُدُّه إليها بلا اهتمامٍ، ثمّ عادت تنظرُ أمامها، وكأنّه لم يقلْ شيئًا، انتظرَ لثوانٍ، ثمّ قال:

_ حسنًا، سأترُكها هنا جانبَك، أخبرني جدّي أنّ حلوى الكراميل تحارب الحُزن، فأصبحتُ كلّما شعرتُ بحزنٍ أتناولها وأُغمضُ عيني فيُنسيني طعمُها كلّ شيء، جرّبي.. أظنّك تحتاجينها الآن.

تركَ الحلوى جانبَها، ونهض مُتجهًا إلى سطْح منزله، وصل إلى السور وقبلَ أن يُكملَ طريقه التفتَ قائلًا:

_ ولا تُطيلي الجلوسَ هنا في البرْدِ يا صغيرة.

زامت بغضبٍ صارخة:

_ قلتُ لك أنا لست صغيرة!

ضحكَ وهو يولّيها ظهرَه، بعد أن تأكّدت جيدًا مِن رحيله التقطتِ الحلوى، دسّتها في فمِها بحذرٍ، ثمّ أغمضتْ عينيها، وفردَتْ ذراعيها في الهواء، ظلّت هكذا لدقائقَ حتّى هدأت قليلًا، ثمّ هبطت لبيتها مُبتسمة، فارتسمت ابتسامةُ الصبيّ الذي كان مُختبِئًا يُراقبها..

***

الظّلم تسعةُ أعشارِه عندنا في السّجن،
وعُشرٌ يجوبُ العالمَ كلّه، فإذا أتى اللّيلُ بات عندنا..

الشّيخ/ عبد الحميد كشك

يناير ٢٠١٦

ليلةٌ بلا نجوم ولا قمر، سماءٌ مُلبّدةٌ بالغيوم، ترعدُ السّماء فُتُذكّر كلّ طاغ بقدرةِ الجبّار، رعدةٌ قويّة دفعتها لأنْ تدفن جسدَها أسفلَ كومةٍ من الأغطية، هي لا تسمع في أذنيها رعدًا؛ بل طلقات رصاص!

بدأت زخّات المطرِ تطرقُ نافذتَها بقوّةٍ، وكأنّها اخترقت رأسَها فأمطرتها وابلًا من الذّكريات، سدّت أذنيْها بكفّيها وأنفاسُها بدأت تتلاحقُ في ذعرٍ، كابوسُها يُلاحقها في النّوم واليقظة، فما عادتْ تعلمُ أين المفرّ!

تذكّرت نصيحةَ والدها فتخلّصت من أغطيتِها، وأسرعت نحو المرحاض، توضّأت ثمّ ارتدتْ ما يليق بعظمةِ الوقوف بين يدي الجبّار، ولّت وجهها شطرَ المسجدِ الحرام، كبّرت وخرجتِ الآياتُ مُرتجفةً من بين شفتيها كارْتجافةِ جسدها، أسرعتْ نحو السّجود ملاذِها، كانت الكلماتُ تتزاحم على شفتيْها، لكّنها سجدَتْ فنسيت كيف تكون! أو ربّما الجمرةُ المُستعرةُ في يسارها أذابتِ الكلماتِ فانْصهرت، وصارت دموعًا!

مرّ ربعُ السّاعة وهي على حالِها، ساجدة تبكي بلا صوتٍ، وتشكو إلى خالقِها وجعَها بلا كلمات! أنهتْ صلاتها وجلستْ تضمّ رُكبتيها إلى صدْرها، شقّ صوتُ الرّعد السماء، وصوتُ طبيبتِها يشقّ أذنيها..

«لا تهربي من الشّتاءِ هذه المرّة؛ بلِ انْتظريه، واجهيه، اهْزمي خوفَك واهْربي من شركِ الذّكريات قبل أن تقضي عليكِ»..

نهضتْ من جلستها واقتربتْ من النافذة، وضعتْ كفّها على الزّجاج، فخُيّلَ إليها أنّ قطراتِ المطر اتّحدت وكوّنت كفًّا باردًا على الزّجاج يُحاول لمسَ كفّها، سمعتِ القطراتِ تهمسُ لها بصوتٍ خافت «اهْزمي خوفَك»، خلعت زيّ صلاتِها ووقفتْ تنظرُ للنافذة، الْتمَعَ التّحدّي في عينيها فهرولتْ نحو بابِ البيت، فتحتْه ووقفتْ على عتبته هُنيهةً، ثمّ خطتْ خطوةً نحو الخارج، تلتْها خطواتٌ أخرى حتّى وقفتْ في منتصفِ حديقة البيت، ترفعُ رأسها نحْو السّماء، وتفردُ ذراعيها، اخترقتْ سهامُ البرْدِ جسدَها فانتفضتْ كسمكةٍ تسبَحُ خارجَ الماء، دوّى صوتُ الرّعد فارتجَفَ قلبُها، لكنّها لم تهربْ هذه المرّة، ولم تسدّ أذنيها؛ بل صرختْ بكلّ ما أوتيَتْ من قوّةٍ «يـــا ربّ»، بعد صرختِها اشتعلَ الضّوء في إحدى غرفِ الطابق الثاني، ثمّ فُتحت النافذة ونظرتْ منها امرأةٌ خمسينيّة، تنهّدت بحرقةٍ وهي تتأمّلها؛ فإذا بذراعٍ يُطوّق جسدَها، نظرتْ له بحزنٍ وقالت:

_ سأذهبُ إليها.

فقال:

_ لا.. دَعيها، أظنّها بحاجةٍ لأنْ تكون وحدها الآن.

_ وماذا سنفعل؟!

_ سنراقبُها من بعيدٍ، لا تقلقي عليها، أعرفُ ابنتي حقّ المعرفة، إنّها أقوى من الألم، ستهزمُه وتعود إلينا.

ـ انتظرْنا أنْ تهزمَه خمسَ سنواتٍ.. ولا جديد!

ـ لا تتعجّلي انتهاءَ فصْل الألم، دَعيه يمضي وحدَه حتى تتعافَى منه بلا بقايا، لا يهمّ كمْ ستعيش في هذا الفصل؛ ما يهُمّ أنّ اليقين مازال في قلبي بأنّها حتمًا ستعود.

....

اختنقَ صوتُها في حلْقها، اختلطتْ بناتُ عينيها بزخّات المطر، وتوحّد الحال في انسجامٍ مطلقٍ بين قسوةِ البرد ولوْعَة الفراق، تسكن بين جوانحها الآنَ رغبةٌ عارمةٌ في الاحْتضان، فلفّت ذراعيها حول جسدِها واحتضنتْ نفسَها بقوّة.

أخذ المطرُ يهدأ رويدًا رويدًا،حتى صار الوابلُ رِهْمة، وبدأت فراشاتُ الأمل تخرُج من الشّرنقة، عادت لغرفتها، جفّفت شعْرَها وجسدَها، جلست خلفَ مكتبها، ثمّ أحضرت دفترًا جديدًا، تأمّلته لثوانٍ تستجمع فيها شجاعتها لحمْل القلم، شهقتْ.. ثمّ زفرتْ ببطء، احتضنَتِ القلمَ بإبهامها وسبّابتها، أوقفتْ رأسه في بدايةِ الصفحة حائرةً لا تعلم ماذا تكتب!؟

قرّرت ألّا تُرتّب الحروف هذه المرّة؛ ستترك زمامَ الأمر لقلمها يخطّ ما يشاءُ فكتب:

«مَن قال إنّ الطّعنة النّافذة مؤلمة؟! أراها رحيمةً بالمقتول، تعقبُها موتةٌ واحدة، أمّا الجراحُ المتكرّرة فهي ألفُ موتةٍ قبل الموتة الأخيرة..

أتساءلُ كيف لشيءٍ كنتَ تعشقه يومًا، وتنتظره بشوقٍ؛ أن يُصبح مصدرَ رُعبك؟! في كلّ عام مع رحيل الخريفِ وعطشِ الأرض لماء الشّتاء، أتوسّل الغيوم أن تحملَ الودَّقَ إلى بلادٍ أخرى، وأتوسّل الرعدَ أن يصمتَ؛ فصوتُ الرّصاص لم يخرجْ بعدُ من أذنيَّ!

المحاولةُ رقمُ خمسة لكتابة مذكّراتي، وقرّرت أنْ تكون الأخيرة، أظنّ طبيبتي ملّت منّي كما مللتُ أنا أيضًا من نفسي، أخبرتني في الجلسة الأخيرة أنّها ما عادت تريدُ رؤيتي، طلبت منّي ألّا أعود إليها قبل أن أُخْرِجَ كلّ الكلمات التي تصرخ داخلي على الورق، في المحاولات السابقة لم أكنْ شجاعة بقدرٍ كافٍ لأُسطّر وجَعي، كانوا دائمًا يقولون إنّني ورثت ملكةَ الكتابةِ عن أمّي، رغم أنّي لم أجرّب من قبل كتابة رواية.. لكنْ هذه المرّة سأُتحلّى بالشّجاعة وأكتب روايتي، سأكون أنا الرّاوي والبطل والجُمهور في آنٍ واحد، إمممم.. مِن أين أبدأ يا تُرى؟ دعوني أولًا أعرّفكم بنفْسي؛ أنا «يقين» ابنةُ الكاتبة «ملك مجدي» ورجل الأعمال «محمد عبد الرحمن»، لو كنتُ أكتبُ هذه المذكّرات في سنواتٍ سابقة لاستبدلت آخرَ جُملةٍ بابْنة المُعتقل «محمد عبد الرحمن».. اعتُقل أبي للمرّة الأولى، وكنتُ وقتَها نطفةً في حشا أمّي، أخبرتني يومًا أنّه سمّاني «يقين» بعد أنْ سمع هذا الاسمَ في منامه، وُلدت وتعلّمت المشي والكلام بلا أبٍ، كلّ ليلةٍ قبل النوم تحكي أمّي عنْه حتى صار بطلي الذي أحلم برؤياه، خمسُ سنواتٍ تعلّمت فيها كيف تُنطق كلمة «بابا»، ولم أنادِ بها أحدًا قط!

حتّى خرج من أحلامي لأرضِ الواقع، وحينما رأيتُه تملّكني الرعب، كنت معْذورة، كيف لعقلِ طفلةٍ في الخامسة أن يستوعب وجودَ رجلٍ غريب بينهم يدّعون أنّه أبوها! لم يكنْ كما في حكايات أمّي، عاتبتها ذات يوم فأخبَرَتني أنّ السّجن مكانٌ موحِش، مَن يذهب إليه لا يعود أبدًا كما كان، بدأتُ أتقبّل وجودَه، وأعتادُ عليه، حتّى أحببته أكثرَ من بطلي الذي يسكن الحكايات، لكنّني لم أهنأ بهذا الحبّ طويلًا؛ فقد عادَ «زوّار الفجر»- كما سمعتُ هذا الاسم وقتَها من إخوتي وأمّي- لم أنسَ هذا اليوم أبدًا، هو بداية خُصومتي مع الشّتاء، وبدايةُ معرفتي بالأطبّاء النفسيّين، كنت وقتها في الخامسة من عمري، تركْنا بيتنا وحياتنا في القاهرة، وانتقلنا للعيش في الإسْماعيلية، وأنا أكثرُ الكارهين لهذا القَرار، فقد فارقتُ مدرستي، جيراني، أقاربي وأصْدقائي، والأهمّ مِن كلّ ذلك مفارقة جدّي مجدي، كنت مُتعلّقة به كثيرًا، منذ أنْ وُلدت وهو يغمرُني بحنانِ الأب، عشنا حياةً صعْبة، أفضلُ تعبيرٍ يمكن إطلاقُه عليها هو «حياة القحْط»، عَمِلَ أبي في ورشة نجارة صغيرة بعد أن تعلّم هذه الحرفة في المُعتقل، بالكاد يستطيع توفيرَ احتياجاتنا الأساسية، فاضطرّت أمّي لأن تُساعده بتدريس أطفال الجيران بمقابلٍ ماديّ زهيد، كما لم يتركْنا جدّي مجدي كعادته، كلّ فترةٍ يعطي أمّي مصروفًا، فلم تُخبرْ أبي كي لا تجرحَ مشاعره، ورغمَ أنّ مصادرَ رزقنا كانت محدودةً؛ بارك اللهُ لنا في هذا الرّزق، كفانا وملأ فؤادَنا بالرّضا والحبّ.

رغمَ انْشغال أبي ليلَ نهار، لم يُهمِلْ حقّنا عليه، يوفّر وقتًا خاصًّا بنا، اعْتدنا أنْ يكون هذا الوقتُ بعد صلاة العِشاء، يعود هو وأخواي حمزة وأنس من المسجد، فنجتمع حولَه في صالة البيت، تُعدّ لنا أمّي- بمساعدة أختي الكبرى حفصة- المشروباتِ التي نُفضّلها، ثمّ تنضَمّا إلينا، فيسألنا أبي عن أحْوالنا؛ عن الدّراسة، وما الذي ينقصنا، يقصّ لنا قصص الأنبياء وصحابة رسول الله، يلعبُ معنا ويُضاحكنا، يغمرُنا بحنانه حتّى نشبع ونشعرَ أنّنا نمتلك العالم أجمع.

ازدادَ تعلّقي بأبي، يعْطيني من وقتِه أكثرَ مِن إخوتي، وكأنّه يحاول أن يعوّضني عن السّنوات الخمس التي نشأتُ فيها بدونه، أذكر ذاتَ يوم أنه أغلق ورشته استعدادًا لاستراحة الغداء، لمحني جالسةً على عتبة بوابة البيت، وملامحُ الحزن ترتسم على وجهي؛ أغلق ورشتَه وجلس جانبي سائلًا بحنان:

_ لِمَ سموّ الأميرة حزينة هكذا؟!

أجبتُ بانفعالٍ:

_ لأنّني لا أجد مَن يلعب معي، وأنسُ منَعَني من اللّعب مع الصبيان؛ فقلْ لي ماذا أفعل الآن؟!

_ إممم.. وهل أليقُ أنا باللّعب مع سموّك؟

رمقتُه بغضبٍ طفوليّ بريء، ثمّ قلت:

_ لا، أريدُ أن تلعبَ معي فتاة.

_ جرّبيني ربّما يُعجبكِ اللّعب معي.

تأمّلته قليلًا، وحاولت أنْ أقتنع بالفكرة، ثمّ وافقتُ فقبّل رأسي وضمّ كفّي يحثّني على النّهوض، صعدْنا للبيت، دخلنا الغرفةَ وهو يسألني عمّا سنلعب، فسألتُه ببراءة:

_ وهل ستلعبُ معي أيّ لعبة أريدها؟

أجابَ باسمًا:

_ أجل.

_ أمتأكّد؟

_ أجل متأكّد.

كان مُستسلمًا لي، يومها عقصتُ شعْرَه بربطات شَعْري كالفتيات، كما لم أتركْ لحيتَه لحالِ سبيلها؛ عقصتُها أيضًا، زيّنتُ شعْرَه بطوقِ الورد خاصّتي، ثمّ لففْتُ حولَ خصْرِه حجابَ أختي، ووضعتُ حجابًا آخر على كتفَيْه، بدأنا نطبخُ ونلعبُ معًا، أظنّني لو لعبتُ مع فتاةٍ مثلي لما استمتعتُ كما حدثَ مع أبي.

وذاتَ يوم، أصرّ جارُنا عليه أنْ يخطبَ بالمصلّين بعد صلاة العشاء ففَعَل، يومَها ارتديتُ حِجابي، وذهبتُ للمسجد معه، لا أذكرُ فيما كان يتحدّث، لكنّي على يقينٍ أنّه لم يكنْ يدعو على المنبر في بيت الله إلى الإرْهاب!

وحينما حلّ الليل، أرسلَ الشّتاء جنودَه فاحتلّت ربوعَ الإسماعيلية، وككلّ شتاءٍ يعدّ أبي ما استطاع من قوّة، كان يكسرُ الأخشاب ليُعدّ لنا «الرّاكية» ورغمَ أنّني جرّبت لاحقًا أفضلَ أنواع المدافئ وأغْلاها؛ إلّا أنّها لم تستطعْ أن تغمرَ فؤادي بالدّفء كما فعلتْ «راكية» أبي، أشعلَ النيران في الحطب، وجلسَ جانبها فركضتُ نحوه، جلستُ على قدميه فقبّل رأسي، وطوّقني بذراعيْه، ظللنا نراقبُ النّيران وهي تخمدُ رويدًا رويدًا، ثمّ حمل أبي «الرّاكية» ووضعَها في صالةِ البيت، جلس جانبَها فالتَفَفْنا حوله، وبدأت جلستُنا العائلية اليوميّة، كنّا نضحك ملء شدْقينا حتّى حان موعد النوم، دثّرتْنا أمّي في أسرّتنا، وغادرتْ إلى غرفتها، ليلتَها رأيت كوابيسَ مزْعجةً، لا أذكرُ منها شيئًا.. لكنْ أذكر جيدًا أنّني كنت مُرْتعبةً فذهبت لغرفةِ أبويّ، واحتميتُ بحضْن أبي، شعرَ بي فقبّل رأسي وطوّق جسدي بذراعيْه، نمتُ باطْمئنانٍ حتّى قُبيل الفجر، فتحتُ عينيّ لأجد الكابوس ترك مَنامي واحتلّ يقظتي، استيقظتُ على صوتِ بابِ بيتنا وهو يُكسر، لم أستوعبْ ما حدث بعدها، وكأنّها صورٌ من غَياهب كابوس، أبي يُغلق بابَ الغرفة، ويدفع الأريكةَ خلفَه، أمّي تحاول طمأنَتي وهي ترتدي حجابها، أبي تارةً يضمّني هامسًا «لا تخافي يا صغيرتي»، وتارةً يساعد أمّي ويحاول طمأنَتها، كلّ هذا حدث في ثوانٍ، ثمّ بعدها كُسر بابُ الغرفة أيضًا، كنت مصدومَةً.. كيف تُنتهَكُ حرمةُ البيوت بهذا الشّكل! رفع أبي يديه هاتفًا:

_ سأخرجُ معكم بهدوء، لا داعي لترْويع الطّفلة أكثرَ من ذلك.

كانتْ وجوههم بالفعْل مُروّعة، جذبوا أبي من تلابيبه، وسحبوه خارجَ الغرفةِ بطريقةٍ مُشينة، رأيتُ رجلًا يصفَعُه على عنقه قائلًا:

ـ ألمْ نأمرك أنْ تنسى الخطابة يا إرهابي!

رغمَ انتفاضة جَسدي خوفًا، غلتْ مراجلُ غضبي فتركتُ حضنَ أمّي وهرولتُ ناحيتهم، ركلتُ الرّجل في قدمِه بكلّ ما أملك من قوّة، لم تؤثّر ركْلتي الصّغيرة فقمتُ بعضّه، ويبدو أنّني نجحت أخيرًا؛ فقد تألّم الرجلُ وصَفَعني صفعةً أطاحتْ بجسدي الصّغير بعيدًا، اشتعلَ غضبُ أبي من جرّاء الصفعة، وبدأ يُقاوم فانْهالوا عليه بالصّفعات واللكمات، طرحوه أرضًا، وظلّوا يرْكلون جسدَه بلا رحمة، أسرعتْ أمّي وحملتني إلى صدْرها، ثمّ جذبتْ أخي الأكبر من ذِراعه ودفعتْه نحو الغرفة بعد أنْ كاد يتدخّل، تملّكني الرّعب أكثر وأنا أرى أبي على هذا الحال، حتّى أنّني من شدّة رعبي بللْتُ بنْطالي، أذكرُ أنّ عيني التقت بعينيه فوجدتُه رغمَ الدّماء التي تسيل مِن وجْهِه يبتسمُ لي وتُطمئنُ قلبي عيناه، لم يرحموه أمامَ أطفاله، صرخَ أخي حمزة في وجْه أمّي كي تتركَه فضمّته إليها وضمّت أختي حفصةُ «أنس» كي يمنعاهما من التدخّل، عشْنا لحظات قهرٍ مفْجِعة حتى سحَبوا أبي خارجَ البيت، ورحلوا....

منذُ هذه الليلة، والنّوم يُجافيني، كلّما سمعت صوتَ الباب أصرخ، ثمّ أبكي بهستيريا، وينتفض جسدي كعصفورٍ ذبيح، ساءتْ حالتي أكثرَ حتّى اضطرّت أمّي لأنْ تلجأ لزوج خالتي، طبيب نفسيّ.. فعل كلّ ما بوسعه

لأتجاوز ما حدث، ظننتُ أنّني سأعيش خمسَ سنواتٍ أخرى من دون أب، لكنّ جدّي تدخّل، ولجأ لمعارفِه حتّى نجحت محاولاتُه فتمّ اعتقال أبي لشهريْن، ثمّ عاد إلينا، وعادت معه البهجةُ والحياة للبيت...

***

صعدتْ إلى سطح البيت، فوجدتْه جالسًا فوقَ سطحِهم ينظر للسّماء، اقتربتْ أكثرَ فسمعت صوتَ بكائه، حينما شعر بوجودِها مسحَ عبراته بظهْر كفّيه، ورسمَ ابتسامةً مُصْطنعة، دسّت يدَها في جيبها، وأخرجتْ حلوى الكراميل، ثمّ مدّتها نحْوه، ظهرَ شبحُ ابتسامةٍ على شفتيه، ثمّ أخرج مِن جيبه أكياسَ حلوى فارغة، وقال:

-لا أعلمُ لِمَ هذه المرّة الحلوى لا تقوى على تسكين الألم.

جلستْ جانبَه صامتة قليلًا، تُفكّر، ثمّ قالت:

_لقد أطلعتني على سرّك، وباتَ سرّي أيضًا؛ لذا سأُطلِعُك على سرٍّ كنتُ قدْ قرّرت ألّا أخبر به أحدًا.

غضّن زوايا عينيه، ونظر إليها باهْتمامٍ، فقالت بصوتٍ أقرب للهَمْس:

_ أتعلم! إنّني أرسل خطاباتٍ إلى الله؟

عقدَ حاجبيه، ومازال ينظرُ إليها باهتمامٍ، فتابعتْ وهي تُقسم:

_ والله، كلّما أردت شيئًا أكتبُ خطابًا إلى الله، وأضعُه هنا، وحينما أصعد في اليوم التّالي لا أجده. ثمّ بعدَها يتحقّق ما كنت أتمنّاه، أتعلم! الشّهر الماضي أعجبني كرّاس رسم وعلبةَ ألوان، ولم يكنْ لدَى أبي المال الكافي فلم أطلبْ منه؛ كتبتُ خطابًا وتركتُه هنا، تخيّل ماذا حدث؟!

سألها مُترقِّبًا:

_ ماذا؟!

– بعدَ ثلاثة أيّام فقط وجدتُ الكرّاس والعلبة هنا.

ردّ مُندهشًا:

_ رائع!

فسّرت دهشته بأنّها نظرةُ شكّ، فقالت:

_ ألا تُصدقني؟

ردّ كمَن يدرأ تهمةً عن نفسه:

– لا.. لا، بالطبع أصدّقك.

_ أتذكُر أيضًا يومَ وجدتُك هنا تصنع طائرةً ورقية، وأهديتها لي؟

_ نعمْ أذكُر.

_ لم تعطِني إيّاها من تِلقاء نفسك؛ لقدْ جعلك الله تفعلُ ذلك دون أن تشعر لأنّني طلبت منه.

اتّسعت عيناه انبهارًا بكلامها، فاتّسعت ابتسامتُها وتابعت:

– كما أنّني أرسلت البارحة خطابًا إلى الله، وأنتظرُ أن يمنحني ما أردتُ، ولكنْ لا تسألني ماذا كتبت، يكفي إلى هنا، لقد أخبرتك بالكثير.

ابتسمَ وهو يتذكّر كيف كان يتسلّل ويسرقُ خطابَها بعد أن تتركه

وترْحل، يقرؤه، ثمّ يدّخر مصروفَه ليشتري لها ما تريد، يشعر بالمسئولية نحْوها، ولا يعلم سببًا لهذا الشعور الذي تسلّل إلى قلبه!

يريد أن يملأ حياتَها بالسعادة، واكتشف- مؤخّرًا- أنّ رؤيتها سعيدة يُسكّن ألَمه أفضل من حلوى الكراميل.

اتّسعت ابتسامتُه أكثرَ وهو يتذكّر آخرَ خطاب وضعتْه البارحة، أرادت فستانًا جديدًا باللّون الوردي، فطلبَ من أمّه- التي تعمل في الحياكة- أن تحيكَ فستانًا لها، وتقدّمه هديةً دون أن تذكرَ أنّه مَن فعل، وبالفعل بدأت أمُّه، وربّما غدًا تنتهي من صنْعه.

انْتشلَتْه من أفكاره أصابعُها الرّقيقة تضغطُ على كتفه لينتبِهَ لها، يبدو أنها كانتْ تتحدّث إليه، فسأل:

_ أكنتِ تقولين شيئًا؟

- نعم، كنتُ أسألك هل ستُجرّب وتكتب خطابًا إلى الله؟

_ إممم.. حسنًا سأُجرّب، ولكن ماذا لو لمْ يتحقّق طلبي؟

_ يومًا ما طلبتُ شيئًا ولم يتحقّق؛ فذهبتُ لأمّي غاضبةً، وسألتها دون أن أُفشي السرّ «ماذا لو طلبتِ شيئًا من الله ولم يتحقّق؟» فقالت إنّ الله وحده يعلمُ الخيرَ والشرّ، ولا أعلمه، ولأنّ الله يحبّني فهو يمنع عنّي الشرّ حتّى وإنْ كنت أراه خيرًا؛ لذا لم أعُدْ أغضب ولا أحزنُ إذا لم يتحقّق طلبي؛

فربّما ما طلبتُه كان شرًّا لي دونَ أن أعلم.. اطلبْ من الله فقط، إنْ أعطاك ما أردتَ إذًا هو خيرٌ لك، وإنْ لم يعطِك فاعلمْ أنّ الله يحبّك ومنَعَ عنك الشرّ، هل فهمت؟!

ابتسمَ ملء شدقيْه وهو يُجيب:

- نعمْ فهمتُ أيّتها الصّغيرة العاقلة.

عقدتْ حاجبيها وزمّت شفتيها قائلةً بعتاب:

- ألمْ أقلْ لك لا تنادِني بالصّغيرة مرّة أخرى؟!

***

«أنا أكْرَه أبي»

يجلسُ ووجهُه ملتصقٌ بشاشةِ الحاسوب، بحثَ في لوحة المفاتيح عن النّقطة، ضغطَ الأزْرار، ثمّ نظرَ للنّصّ بابتسامةِ انتصارٍ، ونادى:

ـ أمّي، أمّي.. انظري ماذا كتبت.

تركتْ جلْي الصّحون، جفّفت يديها، ثمّ أتته باسمةً تسأل:

ـ ماذا كتبتَ يا صغيري العبقريّ؟

ردّ بفرحٍ:

ـ لقد تعلّمت شِفار علامات التّرقيم في لوحةِ المفاتيح، كما أنّني كتبت كلّ النّصوص التي درستها اليومَ بالمدرسة كما كُتبت بالضّبط.

نظرتْ للشاشة، ثمّ إلى الكتاب، فاتّسعت ابتسامتُها، قبّلت وجنتَه، ثمّ مسحتْ على شَعْره بحنانٍ، وهي تدعو له:

ـ باركَ الله فيك، وزادَك من فضله، أثقُ بك، وأعلمُ أنّ الله حباك ذكاءً غير عادي؛ لذا يومًا ما ستعرف كلّ شيءٍ عن هذا الجهاز، وليست علامات التّرقيم فقط.

عبستْ عبوسًا مُصطنعًا، وأكملت:

ـ ثمّ تعالَ إلى هنا، ألم تعدني أنّك ستُعلّمني كيف أكتب اسمي على الحاسوب؟

ـ إنْ لم أُعلّم سيدةَ نساء الكون فمَن سأُعلّم! اجلسي يا أمّي.

نهضَ وأجلسها مكانه، وقف جانبها يُوجّهها قائلًا:

ـ هيّا يا أمّي انْظري لهذا الصفّ، أين حرفُ النون؟

ظلّ يوجّهها وهي تكتب حرفًا تلوَ الآخر حتّى انتهت، ونظرت لاسمها بفرحٍ:

ـ شكلُ اسمي رائعٌ.

ـ أوَليس اسمك! يجب أن يكون رائعًا.

ابتسمتْ بحنانٍ، ثمّ ضمّته إلى صدرها، وهي تدعو له، تلاشت ابتسامتُها ورفعتْ رأسه عن صدرها، وهي تقول:

ـ هيّا، دعني أكملُ تحضير الغداء، ولا تنسَ أنْ تُحبّئ الحاسوب قبل أن يصلَ أبوك.

أماءَ بعبوسٍ، فربتَتْ على رأسه بحنانٍ:

ـ صبرًا يا بنيّ صبرًا.

ـ لنهرب من هنا.

ـ لا يا صغيري، انْسَ أمرَ الهروب، ألا تذكرُ آخرَ مرّة حاولنا فيها ماذا حدث؟!

ـ هذه المرّة سننجح، أرجوكِ.

قبّلت رأسه، ثمّ شدّت على كتفه، وقالت:

ـ سنهربُ لكنّي أنتظرُ أن يكبر رَجُلي الصغير، وحتّى يحدث ذلك سنتحمل معًا، ألم تعدْني بذلك؟

أماءَ بحزنٍ، فضمّته إلى صدرها وهي تُغالب دموعَها، ثمّ أتْقنت رسمَ ابتسامتِها المزيّفة وهي تقول:

ـ هيّا يا بني هيّا، أكملْ ما كنت تفعل، ودَعْني أحضّر الغداء.

تركتْه عائدةً إلى المطبخ، وهو جلسَ أمام الحاسوب، فتح صفحةً جديدة وكتبَ فيها بأكبر خطّ:

«أنا أكْرَه أبي»

❊❊❊

عادَ إلى البيت مُترنّحًا، ورائحةُ الحشيش تسبقُه، سمعَ ابنه صوتَ خطواته فوضعَ علبةَ الكارتون على الحاسوب، ثمّ غطّاها بملاءة كما تفعل أمّه، جلسَ في غرفته، والضّيقُ يأكلُ قلبَه حتّى سمع صوته الأجشّ ينادي:

_ تعالَ إلى هنا يا أخرق.

ارتجفَ جسدُه، ثمّ أسرع إليه؛ فهو يعلم أنّ النّداء الثاني لن يكون بلسانه؛ بل بيديْه، وقف أمامه هامسًا بخوفٍ:

_ نعمْ يا أبي.

_ رفَستك النّعامة يا أخرق، قلْ لي ما نفعُك في هذه الحياة؟ لمَ لمْ تذهب لعمَلِك في ورشة الحاجّ شعبان؟

ألجَمَ الخوفُ لسانه، فخرجت أمّه من المطبخ تُنقذ الموقفَ قائلةً بصوتٍ مُرْتجف:

_ أ.. أنا مَن قلتُ له ألّا يذهب؛ فهو... فهو عادَ من المدرسة مُتعَبًا.

_ إذًا.. لا مدرسة بعد اليوم.

نظر لأمّه يطلب نجدتها، فأسرعت:

_ لا.. لا، هو أصبح بخيرٍ الآن، وسوف يذهبُ للورشةِ غدًا بإذن الله.

_ لا تُطيلي الحديث، أين الغداء؟

_ حاضر، ثوانٍ ويكون هنا، أحتاجُ مساعدتك يا عاصم.

غمزتْ لابنها فتبِعَها للمطبخ، قبّلت رأسه هامسةً:

_ كلّ شيءٍ سيكون على ما يُرام، لا تقلقْ؛ ما دمت أنا هنا.

ابتسمَ لأمّه ابتسامةً مكسورة، ثمّ انشغل بإعداد المائدة معها، وُضع الطعام وجلس الرجلُ يأكلُ بشراهة، أمّا عن الطّفل فهو يأكل بلا شهيّة، وأمّه تربتُ على يده، وتبتسمُ له دون أن ينتبِهَ أبوه لهما، أنهى طعامَه سريعًا، اتّكأ على الأريكة، تجشّأ، ثمّ قال لزوجته:

_ أحضري ذهبَك، أحتاجُ المال؛ لذا سأبيعه اليوم.

وقفَ الطّعام في حلقِها، أخذت تسعلُ بعنفٍ، وابنُها يُناولها كأسَ الماء بقلقٍ، شربتْ حتّى الثّمالة، ثمّ نهضت إلى غرفتها، ثوانٍ وتبِعَها عاصم، أغلق البابَ بهدوءٍ ثمّ همس:

_ ماذا ستفعلين يا أمّي؟

مرّرت كفّيها على شَعْرها بحيرةٍ، وهي تقول:

_ لا أعلمُ يا عاصم، أنا في مأزق.

فُتح بابُ الغرفة بعنفٍ، ثمّ سمعا صوتَه يسأل:

_ هل سأنتظرُ كثيرًا! أين الذهب؟

عُقد لسانُها، فاقترب غاضبًا، ضرب كتفَها بقبضتِه وهو يصرخ:

ـ هل أنتِ صمّاء؟ أين الذّهب؟

لم ينتظرْ ردَّها، فتح الخزانة، وأخرج العلبةَ فوجدَها فارغة، حدّق فيها بعيونٍ يملؤها الغضب، وهو يُشهر العلبَةَ الفارغة أمام وجهها:

ـ أجيبي يا امرأة، أين الذّهب؟ أمِ ابتلعتِ لسانك؟!

بدأتْ ترتجفُ من الخوف، وابنُها ينظرُ إليها مُشفقًا خائفًا، ألقى العلبةَ الفارغة بكلّ قوّته فانكسرتِ المرآة، ضمّت ابنَها ووقفتْ منزويةً في أحدِ أرْكان الغرفة، تشاهدُه في صمتٍ وخوف وهو يُبعثِرُ كلّ ما يقع تحت يديه، اقتربَ لاهثًا، جذبَ ضفيرتَها سائلًا:

ـأينَ تُخبّئين الذّهب هذه المرّة؟ في غرفةِ ابنك الأحمق، أليس كذلك؟

ظلّت صامتةً تنظر للأرضِ بشفتين مُرتجفتَيْن، أفلتها واتّجه نحو غرفة ابنه فتبعتْه راكضةً، فتح خزانته، بعثَرَ الملابس في أرجاء الغرفة، شقّ بمُدْيته الحَشيَّة والوسادة، وبعثر قطنَهما في كلّ مكان، قلبَ الغرفة رأسًا على عقب وهي تتوسّل إليه:

ـ أرجوكَ كفى، اهدأ أرجوك.

وحدثَ ما كانت تخشاه، لمحَ الغطاء، رفعه ثمّ بعدها رفعَ علبة الكارتون وتوقّفت ثورةُ غضبِه فجأة وهو يُقلّب بصرَه بين الحاسوب وبينها، اقتربَ مِن جسدها المرتجف بهدوءٍ، وسأل:

ـ كيفَ اشْتريتِ هذا؟ أجيبي، مِن أين لكِ بالمال؟ أم أنّكِـ...!!

صمتَ للحظات، وكان صمتُه هدوءًا يسبقُ العاصفة، صفعَها بقوةٍ فوقعت أرضًا، وهرْوَل عاصم نحوها صارخًا «أمّي»، ضمّها وتلقّى بدلًا عنها الرّكلات، التقط الرجُلُ عصًا خشبيّة، وكادَ يهوي بها على الحاسوب لوْلا أن أوقفته:

ـ انتظرْ أرجوك، سأتحمّل أنا الضّرب، اكسرْ عظامي سأتحمّل، لكن لا تكسرْ فرحةَ ابنك به، أرجوك.. أتوسّل إليك.

ـ حسنًا، لكِ ما شئتِ، سأجعلكِ تنْدمينَ على اليوم الذي ولدتْكِ فيه أمّك.

قال جُملتَه وهو يسحبُها من ضفيرتها، شدّ عاصم على يدها، فتركت يدَه وأمَرتْه قائلةً:

ـ ادخلْ إلى غرفتك، وإيّاك أن تخرج منها يا عاصم مهْما حدث، إيّاك.

في كلّ مرّة تأمرُه بهذه الجُملة، فيظلّ حبيس غرفته، يسمع تعذيبها في صمت جبان، أغلق بابَ غرفته ثمّ اختبأ تحتَ سريره، بدأ صراخها يعلو ودموعُه تصرخ على خدّيه، سدّ أذنيه بكفّيه ولا فائدة!

صراخُها يقطع نياطَ قلبه الصّغير، هذه المرّة لن يقف جبانًا عاجزًا، هذه المرّة سيعصي أمرَها، لم يعدْ يتحمّل أكثر، جزّ على أسنانه بغضب، خرج من تحتِ سريره، فتح بابَ غرفته فوجدَه يرفعها من جيدِها بيديه، يضغط بكلّ قوّته وهي تلفظُ أنفاسها الأخيرة، وجدَ العصا على الأرض مصبوغة بدماءِ

أمّه، حمَلَها بيدين مُرتجفتين، ثمّ ضرب بها قدمَا أبيه فخارتْ قوّتهما، وقعَ على ركبتيه وأفلتَها، ثمّ عاجَله عاصم بضربةٍ أخرى على رأسه، كانت أمّه تشهق بعنفٍ، وعيناها تكادُ تخرج من محْجَريهما، ترك العصا وأسرعَ يسندُها لتعتدل من نوْمتها، لم تكنْ ضربة الصغير قويّةً لذا وقف أبوه وكأنّ شيئًا لم يكُن، اقتربَ منهما فوقفَ عاصم أمام أمّه يزأر كشبلٍ يبدأ أوّلَ أطوار تحوّله لأسد..

_ لن أسمحَ لك بأن تؤذيها مرّة أخرى.

لم يعرْ كلامَه انتباهًا، اقترب منها يُكملُ ما بدأه، جذبَها من تلابيبها فعضّ عاصمُ كفّه، تأوّه الرجلُ فدفعَه بقوّة، اصطدمت رأسُه بطرف المنضدة، سقط أرضًا، شوّشت رؤيته وبدأتِ الدّماءُ تسيل من رأسه فتناست أمُّه ألَمها وهذرمتْ مُلتاعةً نحوه تصرخ:

_ عاااصم.

وكأنّ الرّجلَ استفاق للتوّ، وأدركَ ما فعله، هرب وتركَها تحتضن صغيرَها، ضمّت رأسَه لصدرها، مسحتِ الدّماء عن وجهه بملابسها، وبدأتْ تهزّ جسده برفقٍ ليستفيق:

_ عاااصم، لا تقلقْ يا صغيري أنا هنا، كلّ شيء سيكون على ما يرام، فقط افتحْ عينيك.

فتحَ عينيه قليلًا، ثمّ زاد ثقلُ جفنيه، وبدأت أنفاسُه تخبو رويدًا رويدًا، آخر ما التقطته أذناه صوتُ أمّه تُنادي بحُرْقة «عاصم».

عاصم

فُتحتْ عيناه بفزع، ومازال صوتُها من غياهب كابوسه يصرخُ في أذنيه باسْمه، اعتدلَ من نوْمته فباغت الصّداع رأسَه بآلام جعلته يتأوّه وهو يضغطُ على صدْغيه بإبهامه وسبّابته، يحتاج الآن لكوبِ القهوة اليومي، أنزلَ قدميه بهدوءٍ، جلسَ هُنيهةً على فراشه، نهض مُترنّحًا، مُغمضَ العينين بخطواتٍ ثقيلة صوْبَ المطبخ، أعدّ كوبَ القهوة ولم ينتظرْ حتى يبرد، رفعَه لفمِه وأنزله فارغًا، نظرَ للسّاعة المُعلّقة على أحد الحوائط وبعدَها خرج من المطبخ نحْو غرفته، أمالَ مقبضَ الباب، ثمّ أعاده لثباته حينما جرّه الحنينُ من تلابيبه إلى غرفةِ الذّكْريات، فتحها بهدوءٍ وكأنّه يخشى أنْ يوقظ الماضي فينهشُ قلبَه، ورغم حرصِه الشديد، بمجرد أن أشعلَ الضّوء، استيقظ وحشُ الماضي وانقضّ عليه، ضربَ بقبضته على قلبِه ليهدأ، وقفَ عند ورقة مُؤطّرة بإطارٍ بنفسجي، كُتب فيها بخطّ عريض «ناريمان»، مرّر أناملَه على الاسم، ومازالَ صوتُ ضحكة أمّه يرنّ في أذنيْه، يسمع صوتَها وكأنّها تتحدّث إليه في الغرفةِ لا من غياهب عقله...

_ شكل اسمي رائعٌ.

_ أوَليس اسمك؟ يجب أن يكون رائعًا.

اتّسعت ابتسامتُه أكثر وهو يمرّر أناملَه على الإطار البنفسجي، لونها المفضّل، التمعَتْ عيناه، وضحكَ وهو يتذكّر يومَ سألها عن معنى اسمها ومَن سمّاها بهذا الاسْم، مازالت ابتسامتُها الصّافية وهي تُجيبه عالقة في ذهنِه:

ـ سمّتني بهذا الاسم جدّتي لأمّي، هو يعني الجَميلة ذات القوام المْشوق، لكنّها لم تكنْ تقصد معناه، بل لهذا الاسْم حكاية قديمة.

ـ أخبريني بها يا أمّي، أحبّ حكاياتك جدًّا.

أحاطت كتفيْه بذراعها وهي تحكي:

ـ جدّتي كانت من أصولٍ تركية وعائلة بُرْجُوازيَّة، تدّعي دائمًا أنّها صديقةٌ مقرّبة للملكة ناريمان الزّوجة الثانية للملك فاروق الأوّل، وعندما أنْجَبتني أمّي أشارتْ عليها أنْ تُسمّيني ناريمان لأصبحَ ملكة مثل صديقتها.

ـ وهل حقًّا كانت صديقة هذه الملكة؟

ـ لم يعلم أحدٌ حتّى ماتت.. هل كانت صادقةً أم لا، لكنّ أحدًا لم يرَ هذه الصّديقة معها يومًا، أنا الوحيدة التي كانت تُصدّقها، ربّما لحبّي الشديد لها وربّما لأنّها كانت تُشعرني دائمًا أنّني سأُصبح ملكةً يومًا ما.

ضحكتْ بمرارةٍ، ثمّ تابعت:

ـ وها أنا أعيشُ هنا خادمةً في بيت أبيك.

طبعَ قبْلةً حانية على رأسها، ثمّ قال:

ـ أنا أراكِ أجملَ الملكات يا ملكة ناريمان.

ضحكتْ ملء شدقيْها قائلةً:

ـ وهذا يكْفيني يا سموّ الأمير عاصم.

يذكرُ دموعَ الفرح التي رآها في عينيها حينما صنعَ لها تاجًا من الورد في اليوْم التّالي، بمرور هذه الذّكرى بخاطره انتقلتْ عيناه إلى صندوقٍ زجاجيّ صغير، وُضع فيه تاجُ الورود الذي صارَ الآن ذابلًا، يرى طيفها بفستانها وشَعْرها الأسود الطويل، ترتدي التّاجَ وتدور حول نفسها بفرح، دار حولَ نفسِه، فتوقّفت عيناه عند بقايا الحاسوب القديم، مازال محتفظًا بها، صوتُ أمّه يهمس في أذنيه بصوتٍ من الماضي.

«أثقُ بك، وأعلمُ أنّ الله حباك ذكاءً غيرَ عادي؛ لذا يومًا ما ستعرف كلّ شيءٍ عنْ هذا الجهاز، وليستْ علامات التّرقيم فقط» رغم كلّ ما مرّ به، كان يُعافر ليحقّق أحلامَها التي لم تستطعْ تحقيقها ووضعتْها فيه، فجأةً اشتعلَ الغضبُ في عينيه حينما لمحَ ورقةً أخرى مُؤطّرة بالأسود كُتب فيها بخطّ عريض «أنا أكْرَه أبي»، علّقها على الحائطِ لتُذكّره دائمًا بثأره ممّن على شاكلةِ هذا الرّجل الذي اختطفَه الموتُ قبل أن يأخذَ ثأرَ أمّه منه، انتشلَه من بين أنياب الماضي رنينُ جرسِ الباب، أغلق الغرفةَ ثمّ وقف خلفَ الباب سائلًا بحروفٍ مُلعثمة:

ـ مـ مـ من؟

_ افتحْ يا عاصم، أنا المقدّم رفعت.

احتلّ التّوتر ملامحَه، زفرَ بهدوءٍ وحاول السّيطرة على قلقه وهو يفتح الباب، استقبله رفعت بابتسامةٍ مُتحفّظة، وضع كفّه على كتفه، ثمّ نظر في عينيه بثباتٍ، وقال:

_ استعدّ، مصر تحتاجُك يا بطل.

***

نظرْنَا لبعضِنا البعض، فأدركتُ أنّها ستكون الصّديقةَ التي يُمْكنني أنْ أبوح
لها بكلّ شيء لا يمكِنُني البوحُ به لغيرها...

دار الإمارة للثقافة والعلوم

«كانت تختلفُ كثيرًا عنّي، ورغمَ ذلك شعرتُ دومًا معها بصدْق مقولة.. «الصّديق هو أنت، لكنْ في شخصٍ آخر» سلسبيل، أو بيلّا كما كانت تُحبّ أنْ أناديها، تكبرُني بأشهر، ابنة العمّ «أيمن» رفيق والدي في المُعتقل، أي خطَتْ أولى خطواتِ حياتها مثلي من دونِ أبيها، إلّا أنّني كنت أكثر حظًّا منْها، فقد ماتتْ أمّها وهي تلدُها، لذا قسّمت أمّي حنانها بيني وبينها، في بدايةِ الأمر كنت أغارُ على أمّي، أردتُها لي وحْدي، ممّا دفعني في أحد الأيّام، بينما كنّا نلعب معًا لأنْ أقرصَ بيلّا بغلٍّ وأنا أنهرُها:

ـ اذهبي إلى أمّك، هذه أمّي وحدي، لا تنادِها بـ «أمّي» مرّة أخرى.

كانت تبكي ممسكةً بعضُدها وتقول:

ـ لا أعلمُ أين هي، أخبرتْني أمّي «ملك» أنّها رحلتْ إلى مكانٍ أجمل من هنا، ونحن أيضًا سنذهبُ إليها، ونكون برفقتِها يومًا ما، لكنّني لا أستطيع أنْ أذهب إليها الآن.

رأتْها أمّي تبكي، فضمّتها تسألُ ما بها، ظننتُ أنّها ستخبرها بما فعلت، لكنّها لم تفعل! فقط أصبحتْ تتجنّب اللعبَ والحديثَ معي، وذات يوم، كانت في بيتنا، كعادتها تلعب مُنزويةً في أحدِ الأركان بعيدًا عنّي، زارتنا إحدى صديقاتِ أمّي، سمعتُ هذه الصديقة تخبرُها أنّ عيني ليست مُلوّنة كإخْوتي، ولست جميلة الملامح مثلهم، كنت أسمعُ هذا التّعليق من الكثيرين حوْلنا، ممّا

أثّر على ثقتي بنفْسي، لم أكنْ أخبر أحدًا بهذا الأمر فقط أبكي وحْدي، وأسألُ الله «لِمَ لمْ تخلقني جميلةً كإخوتي؟»، في هذا اليوم بعدما سمعت تعليقها، ورغمَ أنّ أمّي دافعتْ عنّي، جلستُ أبكي فنسيَتْ سلسبيل ما حدثَ بيننا، واقْتربت تسألني عن سببِ بكائي، فسألتها:

_ لِمَ لستُ جميلة كباقي إخوتي؟

أجابت باسمةً:

_ أنتِ لا تُشبهين إخوتك، وأنا أيضًا لا أشبه أحدًا من إخوتي.

مدّت يديها ومسحتْ دموعي، قبّلت وجنتي، ثمّ قالت:

_ لكنّكِ جميلةٌ جدًّا، وضحكتُك رائعة.

ابتسمت، نظرَنا لبعضنا البعض، فأدركتُ أنّها ستكون الصديقة التي يمكنني أنْ أبوح لها بكلّ شيء لا يمكنني البوحُ به لغيرها.

هي وحدَها مَن استطاعت إعادةَ ثقتي لنفسي، تخبرني بكلّ جميل في ملامحي وشخصيتي حتّى أصبحت أرى نفسي جميلة، وأدركت أنّ الخطأ لم يكنْ فيَّ؛ بل في مقاييس الجَمال التي كنتُ أنظرُ لنفسي بها، اقتنعتُ أنّ عيونَ محبّينا تُكملنا.

لم نفترقْ منذ ذلك اليوم، وكأنّنا توأمان، حتّى بعد أن رحلنا للإسماعيلية، استأجرَ أبي بيتًا قريبًا مِن بيتنا ليعيشوا فيه هي وإخوتُها حتى يخرج والدهم مِن المعتقل، وبعدما خرجَ فعلَ كأبي، نقل كلّ ما يملكون للإسماعيلية، ذهبْنا

لنفس المدارس، الجميعُ كان يتعجّب من صداقتنا، هي هادئة رزينة وخجولة، وأنا على النّقيض.. كنتُ صاخبةً جريئة ومُشاكسة، وربّما هذا الاختلافُ ما جعل علاقتنا قويّة!

كبرْنا معًا حتّى التحقتْ بيلّا بكليّة الصيدلة، وأنا التحقتُ بكليّة الإعلام، الكثيرُ من الفتيات في ذلك الوقت كان جلّ اهتمامِهنّ صيحات الموضة والرّجال، أمّا عنّا فرغمَ اختلاف شخصيّاتنا اتّفقنا على ألّا نتّفق مع بنات جيلِنا حولَ هذا الأمر! لم تغْرِنا صيحاتُ الموضة، ارتدتْ بيلّا النّقاب في السّنة الأولى من الجامعة، وأنا ارتديتُ الخمار، لم تحرّك قلبيْنا قصصُ الحبّ المراهقة التي كانت تُروى وتحدثُ أمامنا، بل لم نكنْ نحبّ الاخْتلاط، وحينما كنّا صغارًا أحبّت بيلّا جارًا في نفس عمرنا، كان يسكن في البيت المجاور لبيتهم، رغم أنّنا كبرنا ونضجَ قلبُها إلّا أنّها مازالت تذكره، ربّما حديثها هذا مجرّد مِزاح، لكنّني أحيانًا كنت أشعرُ بجدّية حديثِها عنه، تركْنا الإسماعيلية وعدنا في أجازاتٍ إليها ولا أثر له، اخْتفى تمامًا ومازال حاضرًا في ذكْرياتها، أمّا عنّي فكانت بيلّا تُسمّيني «الشاويش عطية»، وأحيانًا «أحمد عرابي»، لم يفكّر أحدٌ في الاقْتراب منّي لأنّ مجرّد التّفكير كان سيُكلّفه كثيرًا، وربّما الـ «كثيرًا» هذا يكون حياته!».

تركتِ القلمَ بعد أنِ ارتسمت ابتسامةٌ مكسورة على شفتيْها، أعادتْ رأسها للخلْف، فتوقّف شريطُ الذّكريات عندهما جالستيْن أمام البحر في إحدى الصّيفيات، سألتْها يقينُ مازحةً:

_ بيلّا، ماذا ستفعلين لو رأيْنا قدرًا فارسَكِ الهُمام هنا على الشاطئ؟

أجابتْ ضاحكةً:

_ تعلمينَ أنّني لا أحبّ هذا النوعَ من الأسئلة! لكنْ أظنّني لن أفعل شيئًا.

_ هل حقًّا مازلتِ تحْملين مشاعرَ حبّ له؟

سألت مُتعجّبة:

_ وهل كنت يومًا أحملُ مشاعرَ الحبّ له حتى تظلّ هذه المشاعر! ربّما حينما كنّا صغارًا، أمّا الآن فلا.

_ إذا كان كذلك، لمَ أحيانًا أشعرُ أنّكِ جادّة في الحديث عنه؟!

_ إممم، لا أعلمُ كيف أشرح لكِ الأمر، أنا شخصيّة حسيّة، تغلب العواطفُ على شخصيّتي كما تعْلمين، خشيتُ على نفسي أن أنجذبَ نحو رجلٍ فأتصرّف بشكلٍ خاطئ، أنسى ما ربّتْنا عليه أمّي ملك، ويتلوّث قلبي، أردتُه أنْ يظلّ سليمًا أسلّمه للفارس الذي سيطرقُ باب أبي، وقتَها سأطلق العَنان لقلبي دونَ خوف، وحتّى يحدث ذلك صنعتُ في رأسي فارسًا وهميًّا.

ضحكتْ برقّةٍ، ثمّ تابعتْ وهي تقرص خدَّ يقينٍ بلطفٍ:

_ وسامحكِ الله، أنتِ السّبب في أن يتحوّل هذا الفارس الوهمي إلى جارِ الطّفولة، ولأنّه لا وجودَ له الآن، ولن يكونَ فلا مشكلة عندي أنْ يكون هو هذا الفارس.

ضحكتْ يقينُ ثمّ قالت:

_ فهمتُ قصدَك، أمّا عنّي أنا فلا أحتاجُ لأنْ أصنعَ فارسًا وهميًّا، أنا لا أؤمنُ بالحبّ ولن أفعل!

_ ستفعلينَ يومًا ما، وعندها سأُذكّرك بحديثنا اليوم.

_ لاا.. لن يحدثَ أبدًا، دَعينا مِن هذا الهراء، لنتحدّث عمّا أهمّ من الحبّ، أنا جائعة.

تسمعُ ضحكاتهما في أذنيْها، انتبهتْ إلى بزوغِ الشّمس في الأفق، كعادتها اتّخذت قرارًا في جزءٍ من الثّانية، ودونَ تفكيرٍ ستُنفّذه، وضعَتِ الدّفتر في حقيبةِ ظهْرها مع بعضِ أغراضها الهامّة، بدّلتْ ملابسَها، ارتدتْ حجابَها وبعدَ أربع ساعاتٍ كانتْ تستأجر بيتًا يطلّ على البحر في الإسماعيلية، اعتادوا أنْ يستأجروه كلّما اشتاقوا لجوّها، جلستْ أمام البحرِ شاردةً، صوّبت بؤبؤَا عينيها نحو بيتٍ مجاورٍ للبيْت الذي استأجرته فالتمعتْ عيناها، واعتصر الألمُ قلبَها، عادتْ تنظر للبحر لبرهةٍ، ثمّ أخرجت الدّفتر مِن حقيبتها، وبدأتْ تكتب:

«سؤالٌ حيّرني كثيرًا.. بمَ يشعر الغارقونَ في البحر لحظةَ الموت؟ وما الذي يدفعُهم للاسْتسلام والتخلّي عنْ حياتهم في لحظة؟ وأظنّني في ذلك اليوم لم أعرف الإجابةَ فقط، بل عشتها!

أخي أنس يُمثّل مصر كلّ عام في بطولةِ لعبة «الكونْغ فو»، اعتاد السّفر للإسماعيلية قُبيل البُطولات ليتدرّب بعيدًا عن صخب القاهرة، قرّرت السفرَ معه قبل بدايةِ عامي الدّراسي الجديد بالجامعة، وقتها كُنّا نُودع الصّيف، وقدْ بدأ الخريفُ يفرض سطوتَه، كان الجوّ رائعًا، فلا هو حرّ الصّيف ولا بردُ الشّتاء القارص، أحبّ هذا الجوّ جدًّا، ولاسيّما لو قضيته بقرْب البحر، استأجرَ أخي بيتًا يُطلّ على البحر مباشرةً، وهذا البيت اعتدْنا أنْ نستأجره كلّما أردْنا الابْتعاد عنِ القاهرة، أحبّ السباحة لكن ليسَ في وجود النّاس؛ لذا كنتُ أُفضّل دائمًا ممارسةَ السّباحة مع أوّل ضوءٍ يشقّ السّماء بعد الفجر، راقبت ولادةَ ضوءِ يوم جديد من الشّرفة، الجوّ كان حقًّا مُغريًا لنزول المياه؛ لذا ارْتديتُ ملابسَ السّباحة وخرجت نحو الماء، وبعد أنْ تأكّدت ألّا أحد موجود غيري، ألقيت جسَدي في حضن الماء، ابتعدت عن الشاطئ كثيرًا، لم أشعرْ بالوقت حتّى انتبهت إلى وجودِ رجلٍ يجلس على الشاطئ ومعه جروٌ، لم أعدْ أشعر بالرّاحة في وجوده؛ لذا قرّرت العودةَ للبيت، وفي طريقي نحْو الخروج انزلقتْ قدمي في حفرةٍ عميقة تحتَ الماء لم أنتبه لها، المفاجأةُ شلّت تفكيري ونسيتُ كيف تكون السباحة، لم أدركْ أنّني أغرقُ إلّا حينما ابتلعَني الماء، وبدأتْ أنفاسي في الاضْطراب، عافرتُ لأخرجَ نحْو السّطح، استطعت أنْ أُخرج رأسي لحظةً ثمّ بعدَها عاد اليمّ يبتلعُني في جوْفه، عافرت وقاتلتُه بكلّ ما أملك من قوّة، وحقيقةً كان قويًّا غادرًا كما يقولون، مرّ شريطُ حياتي أمام عيني، أنفاسي تنسحِب، عَلِم قلبي ألّا مفرّ من الموت، فتابَ عن كلّ

ذنبٍ اقترفته، أردتُ أنْ أُشيع أهلي بنظرةٍ أخيرة، أردتُ أن أضمّ أمّي ضمّةً أخيرة، أن يكونوا حوْلي لحظةَ الوداع، فاحت رائحةُ الموت وكتمت أنفاسي، ها قد حانت اللّحظة الأخيرة، ولنْ يُلقّنني الشهادة أحد.

حاولتُ أن أُخرج رأسي من الماء فقط لأنطق الشهادة لكنّي لم أستطع فنطقَها قلبي، ثمّ بعدَها لم أعدْ أشعرُ بشيءٍ، حتى أنّني لم أعدْ أرى أمامي، أظلمتِ الدّنيا رغم أنّي لم أغمضْ عينيّ! صار جسدي رخوًا مُستسلمًا للماء مُفسحًا الطريقَ لخروج الرّوح، فإذا بيدٍ تنْتَشلني من جوفِ الماء، وصوت أحدِهم صارخًا «لا تقلقي؛ أمسكتُ بك» أسَرَتْني رهبةُ الموت؛ فظللتُ كما أنا بلا حراكٍ، لا أعلم هل متّ أم مازلت على قيْد الحياة؟!

لا أذكرُ كيف أصبحتُ فجأةً بين ذراعي الرّجل، ثمّ بعدها على الشاطئ، كنتُ أفتح عيني بين الفيْنة والأخرى فألمحُ طيفَه، وهو يُحاول إنقاذي، بدأت أسْتفيق، اعتدلتُ منْ نوْمتي وتقيّأت الماء الذي ابتلعتُه من البحر، ها قد بدأتِ الرّؤيةُ تتّضح، وأدركتُ أنّني مازلت على قيْد الحياة، ابتسمَ لي قائلًا بودّ «حمدًا لله على سلامتك»، لم أردّ حتّى أنّني لم أشكره، ركضت مسرعةً نحْو البيت، وفي نفس اللّحظة التي وطأت فيها قدماي أرضَه هبطت ساجدةً أشكرُ الله على ولادتي من رحِم الموت، أصابتني هستيريا البكاء، أردتُ وقتَها أنْ أضمّ كلّ الذين غرقوا في اليَمّ وحدهم، لحظةٌ مَهيبة مهّما حاولت وصفَها لن تعبّر الكلماتُ عنها!

كتمتُ صوتَ نحيبي، وحمدتُ الله أنّ أخي مازال نائمًا ولم يسمع، فلم أكنْ في حالةٍ تسمحُ لي بالحديث، جررتُ قدميّ إلى غرفتي جرًّا، بدّلت ملابس السّباحة بمَنامتي، واتّخذ جَسدي تلقائيًّا وضعَ الجَنين على فراشي، ظللتُ أبْكي ولا أعلمُ متى غلبَ النّعاس عينيّ، استيقظت على صوتِ أخي يسأل «يقين، هل أنتِ بخير؟»، لم أستطعِ الردّ، فقط أجبتُ بإيماءةِ رأسي فقال «حدثتْ مشكلة في الشّركة، ويجب أنْ نسافر الآن، هيّا استعدّي».

قالها ثمّ خرج، فجلستُ على الفراش لدقائقَ أحاولُ استعادةَ توازني، اقشعرّ بدَني حينما تذكّرت ما حدثَ قبل نومي، شعرتُ بضيقِ أنفاسي فسحبتُ نفسًا عميقًا، ونهضت أبدّل ملابسي لأهربَ بعيدًا عن البحر، سمعت صوتَ الجرْو في الخارج، فتذكّرت أنّي لم أشكرِ الرّجل، ارتديتُ حجابي، وخرجتُ فلم أجدْه وكأنّ الجرْوَ فهمَني فوجدتُه ينبحُ ويسبقني تجاهَ البيت المُجاور لبيْتنا، تعقّبته حتّى باب البيت، ضغطتُ على الجرس ولم أجدْ إجابة، رفعتُ يدي لأطرقَ الباب فوجدتُه مفتوحًا، ويبدو ألّا أحد بالبيت، قرّرت العودةَ إلّا أنّني لمحتُ شيئًا دفعني لاقتحام المكان مُندهشة، وقفتُ أمامَ لوحةٍ مرْسومة لملامحي لم تكتملْ بعد، تعجّبت كيف استطاعَ رسمي بهذه الدّقة رغم أنّه لم يرَني سوى مرّةٍ واحدة، وكنتُ فيها على وشكِ الموت!

نبحَ الجرْو، فانتبهتُ أنّني اقتحمتُ البيتَ دون استئذان، نظرتُ لساعتي، تأخّرت على أخي كثيرًا؛ لذا أخرجتُ ورقةَ ملاحظات صغيرة من حقيبتي،

كتبتُ فيها «شكرًا لأنّك أنقذت حياتي»، أخذت نظرةً خاطفة حولي أتخيّر مكانًا أضعُ فيه الورقةَ فلم أجدْ أفضلَ من اللّوحة، ألصقت الورقةَ على طرفها، وخرجت، ومازالتْ عيني تتأمّلها بدهشة!».

تركتِ القلم، وعادتْ تنظرُ للبيت، شعرتْ بحركةٍ خلفَها، ارتدّت رأسَها للخلف فوجدت أباها قادمًا نحْوها قائلًا: «أعلمُ أنّكِ تريدين الجلوس وحدَك لكنّ قلبي لم يُطاوعني على ترْكك، سأجلس بعيدًا عنكِ، ولنْ أزعجك، فقط دَعيني أطمئنّ بوجودك أمام عيني».

ابتسمتِ ابتسامةً مكسورة، ثمّ نهضتْ وارتمت بين ذراعيه، ضمّها بقوةٍ وهو يقول:

_ أتعْلمين.. تعلّمت في المعتقل أنّ الصراخ نعمةٌ عظيمة يمكنُها أن تخفّف ألمَ النفس، فكنّا نمارس الصّراخ، أنا ورفاقي، كثيرًا، هل جرّبتِه هنا؟

نفتْ بإيماءةِ رأسِها، فابتسم ثمّ قال:

_ قلّديني الآن.

اقتربَ مِن البحر أكثرَ، وصرخ بـ «آهٍ» بأعْلى صوته، تردّدت قليلًا في البِداية، ثمّ اشتعل حماسُها وفعلتْ مثله، فكأنّها أنعشتْ جراحَ قلبها النائمة، سرى الألمُ في أوصاله، فوضعتْ يدَها عليه وصرختْ بـ «آهٍ» أخرى، صرخَ

أبوها «يااا الله» ففعلت، وهُنا استيقظتْ دموعُها، وأخذت تصرخُ بهستيريا « يـــا الله، يـــااا الله، آآآه».

اقتربَ وضمّها إلى صدره، فأخذ جسدُها يهتزّ من أثر البكاء، بكى وهو يمسحُ على شعْرها، ويربتُ على ظهْرها، يحاول بثّ قلبِها الأمان لتهدأ صرخاتُه وتنطفئ نيرانه.

***

«إنّ الرّجلَ يظلّ طفلًا حتّى تموتَ أمّه، فإذا ماتتْ شاخَ فجأة...»

_ أعـ.. أعـتذرُ لـ.. لا أريدُ الـعملَ معكم.

رفع أحدَ حاجبيه وهو يضع ساقًا فوق الأخرى، ويُشعل سيجارًا، نفثَ دخان سيجارته، ثمّ قال:

_ ومَن قال إنّ لديك حرية الاختيار؟!

ردّ مُنفعلًا يُحاول لملمَةَ حروفه المبعثرة:

_ أعلـمُ أنّك أخـ أخْرجتني من ورْطة، وسسساعدتني، لك دينٌ في رقـبــتي لكنْ لن.. لن أردّه بهـ هذه الطـ طريقة.

_ اسْمعني يا عاصم، أنا لم أقصدْ بجُمْلتي القضية التي ورّطت نفسَك فيها، فأنا لم أساعدك إلّا حينما تأكّدت أنّك بريء، ما أقصده أنّنا جميعًا ولاؤنا لمصر، وحينما ينادينا الوطنُ فلا أظنّ وقتَها يكون لدينا خيارات أخرى غير تلْبِية النّداء، أليس كذلك؟!

_ و و لمَ أ أنا؟

حكّ ذقنَه وقال:

_ لأنّه لا أحد أنْسَب منْك لهذه المهمّة.

_ و وكيـ فـ سأفـ فعل ذلك؟

_ هل أعتبرُ سؤالَك موافقةً وأبدأ بشرح المهمّة؟

كان على وشكِ أن يردّ فقاطعه وتابع حديثه:

_ الأمرُ بسيط، ستتّصل بـ علاء وتطلب منْه أن يتوسّط لك في أن تصبحَ أحدَ رجال مرسي النّحراوي، بالطّبع سيتعجّب من طلبك، ستخبرُه وقتَها أنّك بحاجة للمال.

_ و و لِمَ سيفـ فعل ذلك؟ ما نففعيـ لهـ هذا الرجل؟

_ مشكلتُك أنّك لا تُقدّر ذكاءك يا عاصم، بالطّبع سيسعد بانضمامِك لرجاله؛ بلْ ستكون عنصرًا قويًّا له.

_ لا أستطيعُ أنْ أعمل مع رجل مـ مثله.

_ ولِمَ إذن ساعدت علاء يومَ طلب منك أن تفكّ شفرات الحاسوب، وأنت تعلمُ جيدًا أنّهم سرقوه من صاحبه، وتعلمُ أيضًا أنّ هذا الرجل تدمّر بعدها وأنتَ ساعدت على ذلك!

بدا التّوتر على ملامحه، ظنّ ألّا أحد يعلم هذا الأمرَ سواه وعلاء، ويبدو أنّ رفعت قرأ ما يدورُ في خلده، فضحكَ بسخرية، وقال:

_ لا تظنّ أنّ أيّ خطوةٍ تخطوها في حياتك ليس لديّ علم بها، أعلم أنّك وقتَها كنت بحاجةٍ ماسّة للمال ولا ألومُك، المبلغ كان كافيًا ليموت ضميرُك لا لينام فقط!

_ لـ لم يكنِ المال لي.

_ أعلمُ، كان لعمليّة أحدِ الأيتام الذين تقوم برعايتهم، لكنّ الغايةَ لا تبرّر الوسيلة يا عاصم.

أرادَ أن يُغيّر مجْرى الحديثِ كي لا يتذكّر فعلته التي طردتِ النّوم من عينيه، وجعلتْه يعيش عذابَ الضّمير لشهورٍ فقال:

_ وماذا بعد أنْ أن أتحدث مع عملاء؟

شرحَ له المهمّة ثمّ رحل، لم يأخذْ عاصم الكثيرَ من الوقت في التفكير، مرّت ساعةٌ على رحيل رفعت، التقطَ هاتفه، وقفَ عند اسم علاء هنيهةً، سحبَ نفسًا عميقًا، ثمّ ضغطَ زرّ الاتّصال، وبدأ في التنفيذ، حدث ما أخبره به رفعت، تظاهرَ علاء في البداية بأنّ الأمر صعب، ووعَد عاصم أنّه سيحاول ثمّ بعد ساعةٍ أتاه بالموافقة، وأخبره أنّه سيمرّ عليه في البيت ليخبرَه بقوانين مرسي النّحراوي قبل أن يُقابله.

***

يجلسُ في مللٍ تارة يُراقب عقارب الساعة، و أخرى يتفحّص المكان من حوْله، يجلس في بهوٍ واسعٍ مليء بالتّحف واللوحات، تابع الأثاثات الفاخرة وهو يتخيّل عددَ شباب منطقتِه الذين بوسْعهم تغطية كلّ تكاليف الزواج؛ فقط لو بيع ما يحْويه هذا البهوُ، فما بالك بباقي البيت! ضحك بسخريةٍ بينه ونفسِه، ثمّ زفر بضجرٍ وهو يعودُ ببصره لساعةِ يده، همس للجالسِ جانبَه:

_ هـ هل سسننتظر هنا طـ طيلة الـ يـ يوم؟

ـ اصبرْ يا عاصم، لم أكنْ أعلم أنّك أعجبتَ مرسي باشا للحدّ الذي يجعله يستقبلك في بيته، وهو لم يفعلها من قبـ..

قطعَ حديثه، ووقف كالملسوع حينما لمحَ مرسي يهبط من الدرج، لم يقف عاصم، كان يُتابع الموقفَ ببلاهةٍ حتّى لكزَه علاء، وأشار بعينيه ليقفَ ففعل، تفحّصه عاصم، رجلٌ.. تجاعيدُ وجهه ويديْه تنمّ على أنّه خمسينيّ، لكنّه يُعاند الشيخوخة بجسدِه الرّياضي وشعره المصبوغ بالأسود الفاحم، يحملُ بين سبّابته ووسطاه سيجارًا رآه عاصم كثيرًا في التّلفاز، نظراته ثاقبةٌ قاسية، ازدردَ عاصم ريقَه وهو يُتابع «علاء» ينحني مُقبّلًا يد النّحراوي، ثمّ عاد للخلف ولكزَ «عاصم» ليفعل مثلَه، فأبَتْ كرامتُه أن ينحني، استقامَ والتقط يدَ مرسي مُصافحًا إيّاه، لمعت نظرةُ إعجابٍ لم يلحظْها في عيني مرسي، ثمّ قال:

ـ سمعت كثيرًا عن ذكائك يا عاصم.

ابتسمَ مُجاملةً وقال:

ـ ر ربما يُـ يجاملون..

ابتسمَ وهو يربتُ على كتفِ عاصم قائلًا:

ـ اجلسْ يا عاصم، وأخْبرني لِمَ تُريد أنْ تُصبح واحدًا مِن رجالي؟

حاولَ أن يبدو طبيعيًّا وهو يخبرُه بالأسباب التي لقّنها له رفعت، ويبدو أنّها انطلَتْ على الرجل، نفثَ دخان سيجاره، ثمّ أشارَ لأحدِ رجاله فأعطاه ورقةً ناولها لعاصم وهو يقول:

_ معكَ ورقة بكافّة المعلومات التي يمكن أن تحتاجَها لاختراق حسابٍ بنكيّ، وإذا احتجتَ رجالًا؛ فرجالي موجودون.

ردّ باستنكارٍ:

_ عـ عفـوًا، لكنْ ما عـ علاقتي بهـ هذا الأمر؟

_ إذا أردتَ أن تُفتح لك أبوابُ النّعيم، وتُصبح أحدَ رجال مرسي النّحراوي؛ عليك أنْ تُريني قدراتِك، أريد المالَ الموجود في هذا الحساب.

تفصّد العرقُ من جبينه وقال:

_ لـ لـ لكن أ أ أنا لم أفـ فعلها من قبل!

نهضَ مرسي، وولّاه ظهرَه وهو يقول:

_ رائع، إذًا سأكون سببًا في مغامرةٍ جديدة لك يا عاصم، أراكَ بعدَ ثمانية وأربعين ساعة.

أنْهى جُملتَه، واخْتفى عنْ ناظريه، ظلّ يُحدقُ في الفراغ الذي كان يملؤه الرّجلُ منذ قليلٍ بعينين مُتّسعتين حتّى سحبه علاء من ذراعه لينهض، خرجا من البيت، ومازال عاصم واجمًا، ربتَ علاء على كتفه قائلًا:

_ هيّا يا بطل، بيّضْ وجهي أمام النّحراوي.

نظرَ عاصم له مليًّا، ثمّ قال:

_ أُ أريد العو عودة للبيت.

_ حسنًا سأوصلك؛ لا تقلق.

_ لا أعذرني يا ععلاء، أريد العو عودة وحـ وحدي.

استقلّ سيارة أجرةٍ للبيت، وبمجرّد وصوله أخرجَ هاتفَه، وقف عند اسم رفعت، وقبل أنْ يضغط زرّ الاتّصال تذكّر تحذيرَه، فأخرج من خزانته الهاتفَ الذي أعطاه له رفعت ليتواصلَ معه به، اتّصل؛ فأتاه الرّدُّ سريعًا:

_ ها يا عاصم، أخبرني بما حدث.

أجابَ بصوتٍ مُرتجف:

_ لـ لـ لقد طلب مـ منّي أن أن أخترق حسابًا بنكيًّا، ماذا أففف عل؟

_ اهدأ قليلًا، تصرّف بشكلٍ طبيعي، وافعلْ ما طلبَه منك، واحذر من تحرّكاتك وتصرّفاتك؛ أصبحتَ الآنَ مُراقبًا مِن رجاله.

_ لـ لـكن أن أنا لم أففف عل ذلك مـ من من قبل، ثمّ لم ننتفق ععلى إيذاء أحد!

_ حاولْ ولا تقلق، كلّ شيء سيكون على ما يُرام، هو فقط يختبرُك، هذا الحساب يخصّه، لن تؤذي أحدًا، أثقُ في ذكائك يا عاصم، هيّا أرِهِ قدراتِك، سأغلقُ الآن؛ لديّ عمل هام.

قال جُملته، ثمّ أغلق الخطّ، وتركه في لجّةٍ من القلق والخوف، دخل إلى غرفةِ الماضي، ظلّ مُحدقًا في صورتها لبعض الوقت، ثمّ أخرج ورقةً وقلمًا، وكتب رسالةً لها، وبعدما انْتهى من الكتابة طَوَى الورقة وخبّأها في جيبِ سُترته، ثمّ انطلق إلى الخارج، يريدُ أن يتحدّث معها لبعض الوقت، أو أن يستشيرها فيما هو مُقدمٌ عليه.

***

ينقبض النّاس من المكان، وهو ينشرح صدره، فقط لأنّها هنا، دخل من البوّابة، وقلبُه يُتمتم «السّلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، أنتم السابقون ونحن إنْ شاء الله بكم لاحقون».

مضى في طريقِه حتى وقف أمام قبرها، رسم ابتسامةً صافية لم يكن يرسمُها إلّا في حضرتها، اقتربَ من اللّوحة الرخامية، وطبعَ قبْلَة على اسمِها، ثمّ مرّر أناملَه بحنانٍ عليه، لقد قام منذُ شهورٍ بتغيير اللوحة، كتب عليها لقبَها الذي تمنّت أن تنالَه في حياتها.. «هُنا ترقدُ الملكة ناريمان».

رأى طيفَها يبتسمُ له، مدّ يدَه نحوه فاصطدمتْ بالقبر، وعادت إليه صِفرًا، بدأتِ الدّموع تتجمّع في عينيه، فالتقطها بأنامله سريعًا لأنّها كانت تتألّم حينما يبكي، حملَ وعاءَ الماء الذي أحضره معه، وسقى أُصُص الزُّهور البنفسَجيّة المزروعة حول قبرها، ثمّ جلس وأسندَ ظهرَه على القبر، يُقال «إنّ الرّجلَ يظلّ طفلًا حتى تموتَ أمّه، فإذا ماتت شاخَ فجأة».

كان- بالفعل- طفلَها المدلّل مهْما مرّ به العمر، حتى خطفها الموتُ فشاخَ وذَبُلت روحُه، أسند ظهرَه ورأسَه للوراء أكثر، وكأنّه يريد اختراق القبرِ والنّومَ بين ذراعيها، تذكّر الخطابَ فأخرجه من جيْب سُتْرته، حفر ووضعَه جانبَ الباقين، اعتاد مذْ ماتت أمّه أن يكتب لها عن كلّ مرحلة جديدةٍ في حياته، ويدفن الخطابَ عند قبرها، يعلم جيدًا أنها لن تقرؤه، لكنّ جزءًا مِن طفولته يأبى أنْ يُصدّق، مازال يأسرُ روحَه ويُقنعه أنّها حتمًا ستقرأ!

هالَ على الخطابِ الترابَ، ثمّ تمدّد جانب الورود البنفسَجيّة التي زرعَها حوْل قبرها، أغمضَ عينيه فزاره سلطانُ النّوم، وكعادة النّوم يأبى أن يزورَه ويدُه فارغة، أحضرَ معه كابوسَه الذي لنْ ينساه أبدًا، يومَ ظهرت نتيجةُ الثانوية العامة، وأخيرًا وفّى بوعْده لأمّه، وحقّق الحلم الذي كانت تتمنّاه، عاد للبيت فَرِحًا ليزفّ إليها الخبر، وحينما وصلَ لشارعهم سمع صراخَها، دخل من بوّابة البيت، لم يكنْ يصعد الدّرج؛ بل كان يطير لبيتِهم، ظلّ يطرق البابَ بعنفٍ ويضربُ الجرسَ، ولا مجيبَ سوى صوتِ الصّفعات، وصراخِها، صرخ «افتَحي أمّي، دعْها وشأنَها، أمّيييي» لمْ يسمعْ إجابتَها؛ بل صوتَ أبيه الأجشّ يصرخ فيها «أين المال الذي تخبّئينه؟ هيا أجيبي وإلّا قتلتك».

ردّت عليه صارخةً: «لنْ أعطيك قرشًا واحدًا؛ هذا المال من حقّ ابني ليلتحقَ بالجامعة».

حاولَ أن يكسر البابَ بجسده الهزيل فلمْ يستطع؛ لذا صعدَ لسطح البيت، ثمّ هبطَ عبْر مواسير المياه لنافذةِ غُرفته، دفعَها بقوّةٍ ودخل إلى البيت

سريعًا، رآه يُشهِر مدْيَته في وجهها، فغَلَتْ مَراجلُ غضبِه وهرْوَل نحوهما، جذب أباه مِن تلابيبِه، فهتفتْ أمّه بخوفٍ: «ابتعدْ يا عاصم، لا تتدخّل».

يبدو أنّه كان مخمورًا كعادته؛ لا يعي أنّه يُحاول في هذه اللّحظة قتلَ قطعةٍ منه، تقترب المدْيَة من صدْر عاصم وهو مازال يصدّ يدَه، ويدفعها بقوّة، وأمّه تلطمُ وجهها وتصرخُ مُستغيثةً بالجيران، ولا مُجيب، ربّما لأنّهم اعْتادوا على شجارها الدّائم مع زوجها، وكلّما تدخّلوا أصابتهم الشتائم والإهانات؛ فمنعتْهم كرامتُهم من التدخّل في شجارٍ بينهما مرّة أخرى، لم تجدْ بدًّا من الدّفاع عن صغيرها بآخرِ ما تملك من قوّة، حاولت أن تحول بينهما حتّى نجحتْ في اللّحظة الحاسمة، وهذا النّجاح كلّفها حياتها، بدلًا من أنْ تنغرِسَ المدْيَة في صدرِ وليدها انغرستْ بقوّةٍ في قلبها، توقّف الزمن للحْظة، مال جسدُها على صدْر عاصم، قلبُه يخبره أنّ ما يخشاه قد حدث، نظرَ ليد أبيه كي يقطعَ الشكّ باليقين فلم يجدِ المدْيَة، ارتجفَ جسده، رفع كفّه فوجده مُخضّبًا بدمائها، حاول أن يصرخ فكأنّما انغرست المدية في لسانِه فقطعته، بدأ جسدُ أمّه يخرّ أرضًا فضمّها إليه، وأسندَها حتّى تمدّد جسدُها على الأرض، نظرَ حوْله ليستجدي آخرَ أملٍ في وجود إنسانية في هذا الرّجل الذي يحمل اسمَه، فلم يجده! هرب كعادته، خلعَ قميصَه وكتمَ موْضع الطّعنة، ثمّ أخرج هاتفَه بيدٍ مُرتعشة، لا يذكر رقمَ الإسعاف؛ بل لا يذكرُ كيف يفتحُ هاتفه، وكأنّما فقد الذّاكرة، انتبه لأنينِها فتركَ الهاتف وحاولَ حمْلها إلى المشفى.. فلم يستطعْ، وقف في الشّرفة ليُنادي الجيران فلم يخرج صوتُه، عاد إليها يُحاول حمْلَها مرّةً أخرى، فشدّت

على يده بوهَنٍ، سمعها تهمسُ بشيءٍ، أراد أن يتحدّث، لكنّ معدتَه تؤلمه كلّما تحدّث، حاول مرّةً أخرى وتحمّل آلامَ معدتِه وهو يقول بصوتٍ مُتهدج:

_ لا.. لا تتحدّثي يا أمّي، لا تقلقي حبيبتي؛ سآخذكِ إلى المشفى، سأنقذك لا تقلقي، فقط حاولي ألّا تستسلمي.

أشارتْ بأصبعِها ليقتربَ منها، ففعل، همستْ بحروفٍ مُتقطعة:

_ سـ ستجدُ المال الذي ادّخرته لجامعتك خـ خلف صورتي معكَ المعلّقة في غرفتك.

أجاب بخوفٍ:

_ لا.. لا أريد شيئًا يا أمّي، أريدك فقط أنْ تصمدي حتّى أعود، سأطلب المساعدة من الجيران.

_ لا.. لا تذهب، أريد.. أريد أن يكون وجهُك آخرَ ما ترى عيني قبل النّوم.

_ لا تنامي يا أمّي، أرجوكِ فقط انْتَظري، لن تتركيني، أليس كذلك؟ أمّي أجيبيني أمّي..

شخصَ بصرُها، مالَ رأسُها، وارْتختْ يدُها، هزّ جسدَها برفقٍ وهو ينادي:

_ أمّي!! مِن فضلك لا تنامي، سـأنقذك، فقط انتظريني.

أراحَ رأسَها على الأرض وهرولَ خارج الشقة ليستغيثَ بالجيران، مازال يُحاول رغم أنّ الأوان قدْ فات، هبط الدّرج سريعًا، وجد الشارع فارغًا، وعلى ناصيتِه اجْتمع الناس، ركضَ نحوهم، الكلّ منشغلٌ بشيءٍ ما مُكومٌ على الأرض، ومغطّى بأوراق الجرائد، بعضُهم يهمس «لا حوْل ولا قوّة إلاّ بالله» وآخر يقول «كانَ رجلًا دنيئًا يستحقّ نهايةً مروّعة كهذه»، فيردّ عليه آخرُ «لا داعي لهذا الكلام، ادعوا له بالرحمة».. انتبه أحدُهم إلى وجودِه أخيرًا، فاقترب وربتَ على كتفِه مواسيًا يقول: «البقاءُ لله يا بني، أنتَ الآن رجلُ البيت وسندُ أمّك..» لم يفهم قصدَه، بدأ الجمع يتفرّق، رأى هيئة الجسد المكوّم على الأرض، هبّت نسمة هواءٍ رفعت الجريدةَ عن وجهه فرآه، إنّه هو.. أبوه، يبدو أنّ سيارةً صدمته حينما حاول الهرب، وكأنّه لا يعرفه، لم يقتربْ منه؛ بل ولّاه ظهرَه، وأسرع إلى بيتِهم وهو يطلبُ المساعدة من جارهم، صعدَ الرّجل معه برفقةِ بعض الجيران، صعقوا ممّا رأوا، اقتربَ شابٌّ من جيرانهم من أمّه، وجد جسدَها باردًا، تحسّس نبضَها فلم يجدْ نبضًا، نظرَ لعاصم بأسى فكذّب عاصم عينيه وقال:

_ لنْ ننتظر الإسعاف، هل يمكن أن نأخذها في سيارتك يا أستاذ مصطفى؟

نهضَ واقترب من عاصم، وضع يدَه على كتفه، وحروفُه تأبى أن تخرج، ألحّ عليه عاصم أن يُسرع، فقال بهدوءٍ:

_ لسْنا بحاجةٍ للإسعاف يا عاصم، البقاءُ لله، رزقك الله الصبرَ والسلوان.

أزاح يدَ الرجل بعنفٍ وركضَ نحْو أمّه، رفع رأسَها إلى صدره، وكأنهما وحدهما في صالة البيت، قبّل وجنتَها الباردة، ومِن ثمّ قال:

_ عدتُ إليكِ يا أمّي، هيّا استيقظي، أتعلمين.. أحملُ إليك البشرى، لقد مات ذلك الرجلُ الذي عذّبنا طوال حياتنا، لم نعدْ نحتاج الهرب، كما أنني كنت أدّخر مصروفي، لنضعَه على المال الذي خبّأته لجامعتي ونسافر معًا، بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن أيّ مكان عشتِ فيه ذكرى سيئةً معه، هيّا يا أمّي استيقظي...

مازال لا يستطيعُ التّصديق، ضمّ رسغَها فوجدَه باردًا بلا نبض، في صغره كان كلّما تأذّى جزءٌ من جسده تُقبّله وهي تدعو الله أن يشفيَه فيخفّ ألمُه؛ بل ويزول، رفع رسغَها إلى فمِه، قبّله وهو يدعو كما كانت تفعل لعلّ النّبض يدبّ فيه من جديد، كرّر فعلته ثمّ تحوّلت إلى قبُلاتٍ هستيرية على وجهها ويديها حتّى أنّه اقترب من موْضِع الطّعنة وأخذ يُقبّله، اقترب منه أحَدُ الجيران وحاول أن يرفعَه عن جسد أمّه، فصرخ في وجهه، ثمّ طلب منهم جميعًا أن يخرجوا من البيت، وقفوا يمطّون شفاههم ويهمسون في شفقة، وهو لا يسمعُهم ولا يراهم؛ هو فقط يريدُ أن تنهضَ أمّه، تسارعت دقّات قلبه، من فرط شدّتها يكاد قلبُه ينخلع من مكانه، حاول أن يُنادي أمّه فعادَ ألمُ معدته، اختنق لسانُه فجأة واختفتِ الحروفُ من بين شفتيه، حاول مرّة أخرى حتى صرخت حروفُه بـ «أمـــــي»..

دفنوها، وكأنّهم دفنوا روحَه معها، حتّى أنه أصابه الخرسُ لشهور، وحينما عادتْ إليه حروفه عادت مُتقطّعة مُتلعثمة.

***

كان حارسُ المقابر يمرّ بالقرب من القبر، فسمع صوتَ بكاءٍ، أسرعَ نحو الصوتِ فوجده ينام مُكوّرًا جسده، ويبدو أنّه غارقٌ في النّوم، ورغم ذلك يبكي بحُرْقة، اقتربَ الرجل منه وهو يُتمتم «لا حوْل ولا قوّة إلّا بالله»، هزّ جسدَه برفقٍ، وقال «قمْ يا بني، استيقظْ، وحّدِ الله، وادْعُ لها بالرحمة والمغفرة».. انتفضَ جسدُه ونظرَ للرجل بعينين مُتّسعتين، ربتَ على كتفه وذكّره بالدّعاء لها، لم يردّ عليه، نهض مُتجهّمًا مُتّجهًا نحو باب الخروج، رفع يدَه وتحسّس السّلسلة التي تُطوق جيده، سلسلة تتدلّى منها زجاجة صغيرة، بها حفنةٌ من تراب قبرها.

***

لم يذقْ طعمَ النّوم، كان يُخطّط لكلّ خطوةٍ قبل التنفيذ، ودافعه الذي يُحرّكه هو الانتقام، الانتقامُ من أيّ رجلٍ فاسدٍ فاسق، ربّما لأنهم يستحقّون، وربما لينتقمَ من أبيه فيهم!

حاولَ بطريقةٍ وفشلت، فكرّر محاولاته بشتّى الطرق التي يعرفها، والتي لم يكنْ يعرف بوجودِها، حتّى نجح أخيرصا قبل انتهاء الثمانية وأربعين ساعة.

***

صعدَ ليُطعِم الدّجاجات فوق سطحهم، فرآها ترسم شيئًا ما، وضع الطعام للدّجاجات، ترك الصّحنَ واقتربَ منها، نظر في الورقة، ثمّ قال ضاحكًا:

_ كنتُ مُتأكّدًا أنّكِ ترسمين حمامةَ السّلام، ألا تملّين من هذه الرّسْمة؟

ابتسمتْ وهي تُجيب:

_ لا أمَلّ، بل أحبّ رسمها جدًّا.

أرادَ أن يُغيظها فقال:

_ تحبّين رسمها، أمْ لا تستطيعين رسمَ غيرها؟!

ونجحَ في ذلك، فقد احمرّ وجهُها وهي تقول حانقةً:

_ أنا أستطيعُ رسمَ كلّ شيء، لكنّي أحبّ أن أرسم حمامة السلام.

ضحكَ، وحاول إخمادَ ثورةِ غضبها:

_ حسنًا حسنًا، اهدئي يا «كيڤوك».

انعقدَ حاجباها وهي تُتَمْتم:

_ كيڤوك؟!!

_ أجلْ، مِن اليوم سأُناديكِ «كيڤوك».

_ وماذا يعني هذا الاسم؟

_ حمامة السّلام.

ابتسمتْ ملء شدقيها، وقالت بفرحٍ:

_ اسمٌ رائع، أعجبني، وسأخبرُ الجميع أن يُنادوني به.

_ لا.. لا تخبري أحدًا، هذا الاسمُ خاصّ بنا، أنا فقط مَن سيُناديكِ به، اتفقنا يا «كيڤوك»؟

أجابتْ باسمةً:

_ اتّفقنا.

***

هذا النّوعُ من الإعجاب هو أسرعُ المفاتيح لبوّابة الحبّ، وإذا فُتحتِ البوّابة بالطريقة الخاطئةِ ستتحوّل إلى بوّابة الجحيم.

«عدتُ للقاهرة برفقةِ أخي، وعقلي مازال مشغولًا باللوحة وصاحبها، بمجرّد وصولي اتّصلت بـ بيلّا تأتيني، جلسنا في غرفتي، أخبرتُها بكلّ ما حدث، فزعتْ حينما علمتْ بأمر الغرق، وعانقتني وهي تُتمتم بخوفٍ «حمدًا لله على سلامتك يا توأمي»، ثمّ تطرّقنا للحديث عنه، فسألت:

_ هل تذكرينَ أنكِ رأيتِه في مكانٍ ما؟

_ لا، رأيتُه للمرّة الأولى فقط حينما أنْقذني، ولا أظنّ أنّ ذاكرته قوية للحدّ الذي يدفعه لرسْم ملامحي بدقّة من رؤيتي مرّة واحدة!

_ حسنًا، لا تُشغلي بالك كثيرًا بهذا الأمر وأخبريني، أمستعدّة لبداية الدّراسة يا إعلاميّة المستقبل؟

أجبتُ بملل:

_ إمم.. لا أعلم. سافرتُ مع أخي لأعود مستعدّة، لكنّي الآن لا أستطيع أنْ أُخرج لحظةَ الغرقِ من رأسي.

ربتَتْ على كتفي وهي تقول:

_ ستمرّ يا عزيزتي، فلنعتبرْها رسالةً من الله لتُعيدي حساباتك مع نفسك.

_ سأفعل بالتأكيد.

مرّت الأيامُ وبدأ العامُ الدراسي، شغلتني الدّراسة عن التفكير بما حدث في الإسماعيلية، سارت الأيامُ على نحوٍ هادئ، وروتينِيّ مُملّ، حتّى حدث قصفٌ على غزة؛ فأشعل نيرانَ الثوريّة في عروقي، جهّزت لافتاتٍ تُندّد بالاحتلال وجرائمه، تلفّحت بالشّال الفلسطيني، ثمّ نظّمت مظاهرة، كانت في البِداية تضمّ بعضَ رفاقي حتّى انضمّ إلينا كلّ قلبٍ مكلومٍ على ما حدث لإخواننا في أرض العزّة، دوّت أصواتُنا عاليًا حتّى تجاوزتْ أسوارَ الحرم الجامعي، حاولوا إغلاقَ البوّابات، لكنّها لم تصمدْ أمام ثورتنا ففُتحت على مصراعيها تحثّنا على الانْطلاق، ارتفعتْ أصواتُنا أكثر، كانت الدموع من فرْط الحماس تسيلُ من عيني وأنا أصرخُ بكلّ قوّتي «يا صهيوني يا خسيس.. دمّ المسْلم مش رخيص».. لم أكنْ أشعرُ بما يدور حولي، مشهد الثّائرين ملأ عيني حتى لاحظتُ فجأةً أنّ الأصوات بدأت تخمدُ رويدًا رويدًا، والصفوف بدأتْ تتشَتّت، هناك مَن يتراجع خطواتٍ للخلف، ومن يفلّ هاربًا، وهناك مَن يتقدّم أكثر، لم أفهمْ ما حدث حوْلي فجأةً حتى رأيت عسكريًّا ينْهال بعصاه على رأسِ أحدِ زملائي، تذكّرت وقتَها أنّنا في وطنٍ يقطعُ الألسنة التي يعلو صوتُها بالحقّ، لحظاتٌ من الهرج والصراخ ثمّ بعدَها وجدتُ نفسي مكبّلة بالأصفاد في سيّارة الشرطة وسطَ مجموعةٍ من زملائي وزميلاتي ممّن شاركوا في المظاهرة، وكأنّني وقتها أُصبت بالخَرَس، لم أكنْ أفعلُ شيئًا سوى المشاهدة، أتأمّل الجالسين حولي بوجوهٍ تقطرُ منها الدّماء، وأجسادٍ متْعَبة، شعرتُ بغصّة في قلبي، وحملت ذنبَ كلّ مَن هتفَ خلفي وخلفَ جنوني

الثّوري، توقّفت السيارة ثمّ سحبونا من صندوقِها بعنفٍ دونَ تفريقٍ بين رجلٍ وامرأة، أو حتّى دون وعيٍ أننا بشر، وكأنّهم يجرّون أغنامًا!

حبَسونا في غرفةٍ فارغة، كانت أنّاتُ بعض الشباب وبكاءُ الفتيات يطعنُ قلبي، حاولتُ التّخفيف عنهم، أنْ أبثّ الشّجاعة في نفوسهم، فوجدت لساني مازالَ عاجزًا عن النّطق، تذكّرت هاتفي، فأسرعتُ أُفتّش جيبَ فستاني حتّى وجدته، تنفّست الصعداء، أخرجتُه فوجدت خمسَ مكالماتٍ من بيلّا، حمدتُ الله أنّني دائمًا أضعُه على الصّامت، وإلّا انكشف أمرُه وأخذوه كحقائبنا، لم تدمْ فرحتي حينما رأيتُ على الشّاشة تحذيرًا باقتراب نفادِ البطّارية، زفرتُ بقلقٍ، ثمّ راقبتُ المكانَ حوْلي بنظرةٍ خاطفة، وبعدها أسرعتُ وكتبتُ رسالةً صغيرة لبيلّا أخبرها أنّه تمّ القبض على مَن بالمظاهرة، وفيها اسمُ القسم الذي لمحته على اللّوحة فوق بوّابة الدخول، ضغطت زرّ الإرسال فانطفأ الهاتف، زفرتُ بحنقٍ وتوتّر، لا أعلمُ هل وصلتِ الرّسالة قبل أن يُغلق، أم لا؟ حاولت فتحَه مرارًا، ودون جدوى، فأعدتُه لجيبي حينما سمعت صوتَ الباب، أمرَنا عسكريّ أن نتبعه، فسرنا خلفَه إلى غرفةٍ أخرى، تركونا واقفين دونَ كلمة، فتجوّلت عيني بالغرفة، لم تكنْ كالسّابقة، ربما أوسع منها، بها أريكتان من الجلد، ودولاب مكتظّ بالملفّات الضّخمة، ورغمَ طول قامتي لم أستطعْ رؤية باقي الغرفة نظرًا لأنّني أقفُ في الخلف، لكنّني أسمع حديثهم، أعتقد أنّهم بعض رجال الشّرطة يتناقشون حول قضيةٍ ما، وكأنّنا غير موجودين، وأخيرًا انْتبهوا لوجودنا، سمعت أحدَهم يتحدّث بغلظةٍ وتهكّم:

ـ مَن زعيم التّنظيم يا «كتاكيت» الذي قرّر أن يلعب بأعواد الكبريت دون إذنِ ماما، وتسبّب فيما حدث لكم؟

سادَ الصمتُ لثوانٍ، حتّى كرّر جُملته وسؤالَه بنفس أسلوب التهكّم، وأضاف:

ـ مَن يخبرني بالاسم أولًا أضمنُ له الخروج.

أثارَ غضبي، فاخترقتُ الصفوفَ حتّى وقفت في المقدّمة، نظرت للمتحدّث بثقةٍ، وقبل أن أنطقَ ضحكَ بسخرية قائلًا:

ـ ممتاز، أوّل كتكوتة عاقلة قرّرت أن تتحدّث.

لمعتِ الشّجاعةُ في عيني وأنا أنظرُ إليه وأقول:

ـ أوّلًا، أنا لست كتكوتة، ولا هؤلاء يجب أن تُطلِق عليهم هذا اللّفظ، ثانيًا لستُ زعيمةَ تنظيم، ولكن أنا مَن نظّمت المظاهرة.

أطلقَ صفيرًا، ثمّ صفّق بيديه وقال:

ـ مِن الطبيعي أن تكونَ جريئة مثلك هي زعيمتهم.

ـ قلتُ لك أنا لسـ...

قاطعني بِحدّة، وهو يقف صارخًا في وجهي:

ـ هصصص.. لا تتحدّثي قبل أن آذن لكِ.

لم أهتزّ لصرخته قيدَ أنْمُلة، بل اشتعل غضبي أكثر، ووقفتُ أردّ بصوتٍ عالٍ:

ـ لا، بل من حقّي أن أتحدّث، وأسأل لَمَ أنا وزملائي هنا؟ ولم تعرّضنا لهذه الإهانات؟ من حقّنا على الأقلّ أن نعرف الإجابة.

نظرَ لأحد الواقفين جانبَه سائلًا بغضب: «ما اسم هذه الأفعى؟».

أجبتُ عاقدةً ذراعيّ أمام صدري:

ـ معَ تحفّظي على كلمة «أفعى»، اسمي يقين محمد عبد الرحمن، ستجدون بطاقتي الشخصيّة في حقيبتي التي بحوزتكم.

جلسَ في مقعده، وظلّ ينظرُ لي في صمتٍ، ويُضيّق عينيه، همّ أن يقول شيئًا لولا أن وقف أحدُ الشّرطيّين اللّذين كانا يُتابعان المشهد في صمت، اقتربَ وهمس في أذنه، نظر له هنيهةً، ثمّ لي، وهو يحكّ ذقنه الحليق، ثمّ أومأ بنَعَم، فخرج الرّجل الذي تحدّث إليه، وأغلق الباب خلفه، كنت أتابعه وهو يرحلُ حتّى استدرت على نداءِ الجالس خلف المكتب:

ـ يا هذه، احْمدي الله أنّ آدم باشا قرّر هو التّحقيق معكِ، ورحمكِ من يدي.

بعدها دخلَ عسكري وسحبني وحْدي من الأصفاد إلى غرفةٍ في الطابق الأعلى، أدخلني ثمّ خرج وأغلقَ الباب، لم يكن هناك أحدٌ بالغرفة، تفحّصتها، كانت تشبهُ التي أتيتُ منها إلّا أنّ هذه الغرفة مرتّبة بشكلٍ أفضل من السّابقة، كما أنني لمحت شيئًا غريبًا في مكانٍ كهذا، وجدتُ ورودًا! ابتسمتُ بسخرية وأنا أشفقُ على هذه الكائنات الرقيقة، ثمّ وقعت عيني على اللّوحة

الخشبية الموضوعة فوق المكتب، اقتربتُ وأنا اقرأ الاسم.. الرائد «آدم محمود الحفناوي» وكأنّني ناديته! سمعت صوتَ الباب فاستدرت نحْوه، وقف ينظرُ لي باسمًا، شعرت لوهلةٍ أنّني رأيته من قبل، لكن لم أذكرْ أين؟

اقتربَ، ومازال مُحتفظًا بابتسامته، فكّ الأصفاد، ثمّ أشار لي بالجلوس ففعلْت، ساد الصمتُ للحظاتٍ، ومازال يتفحّصني باسمًا، فقلت:

_ هل سنبدأ التّحقيق، أم تحفظ ملامحي لترسمني؟

ضحكَ ثمّ سأل بدهشةٍ:

_ كيف عرفتِ؟

رفعتُ أحدَ حاجبيّ استنكارًا:

_ كيف عرفت ماذا؟!

_ أنّني أحفظ ملامحك لأكملَ لوحتي النّاقصة منذ شهور.

انعقدَ حاجباي، ثمّ اتّسعت عيناي فجأة، ها قد تذكّرت، هو رجل اللّوحة، مُنقذي المجْهول، ظللتُ صامتةً لثوانٍ، والدّهشةُ تأسر ملامحي، حتى انتبهتُ وهو يُلوّح بيده:

_ يقين! هل أنتِ هنا؟

سألتُ ومازلت مندهشة:

_ كيف استطعت رسمَ ملامحي بهذه الدقّة، رغم أنّك لم ترَني سوى مرّةٍ واحدة؟

عادتِ ابتسامتُه الصافية ترتسمُ على شفتيه وهو يقول:

_ ربّما أُخبركِ لاحقًا إذا وافقتِ على مساعدتي لأكمل اللّوحة؟

عدتُ لغضبي قائلةً:

_ أها.. اللّوحة التي لم تستأذن صاحبتَها قبل رسمها!

_ ربّما لأنّني لم أكنْ أنتوي رسمك لوْلا أنْ أسَرَتْني تفاصيل ملامحك، رسمت الكثيرين لكنّني لم أرسم وجهًا جذّابًا مثل وجهك.

لا أعلم نيّته من قول هذه الكلمات، هل كان يُجيب عن سؤالي أم يقصد مغازلتي وإرباكي؟ حاولتُ إعادةَ نفسي لصوابها بارْتداء قناع الغضب وأنا أسأله:

_ هل سنظلّ طوال التّحقيق نتحدّث عن اللوحة أم ماذا؟

وكأنّه قرأ توتري، فضحك ثمّ قال:

_ انتهى التّحقيق يا يقين، تستطيعين الرّحيلَ متى شئتِ، كما أنّني أحضرت حقيبتك، تفضّلي.

اتّسعت عيناي وأنا اسأل:

_ كيف ذلك؟! وماذا عنْ زملائي؟ أنا لن أخرجَ قبل خروجهم جميعًا.

_ لا تقلقي، ربّما هم الآن ينامون في بيوتهم براحة، ما حدث كان إجراءً روتينيًّا، كنتم ستخرجونَ من البداية لوْلا ردودك المستفزّة.

_ هل الدّفاع عن حقّي أصبح ردودًا مستفزّة؟!

عادَ للضحك، فأثار غيظي، قلت:

_ ما شاء الله تضحَك منذ بدأنا الحديث، هل تراني أطلق النّكات؟!

نظرَ في عيني نظرةً غريبة لم أكنْ أفهمُ وقتها معناها، ثمّ قال:

_ لوْ تعلمين كم طارَ النّوم من عيني بسببك، وكم بحثتُ عنكِ! لَمّا كنتِ سألتني عن سببِ ضحكاتي اليوم.

_ عفوًا، لم أفهم قصدك؟

ابتسمَ ابتسامة هادئة ثمّ قال:

_ ربّما يومًا ما تفهمين، كنت أودّ بقائك أكثر.. لكنّ صديقتك، أعتقدُ اسمها سلسبيل تنتظرُك في الخارج، يمكنكِ الآن الخروج.

سكتَ هنيهة، ثمّ ختم كلامه قائلًا:

_ أتمنّى أن نلتقي المرّة القادمة في ظروفٍ ومكانٍ أفضل من السابقين.

أخذتُ حقيبتي، ثمّ خرجت، والكثيرُ من علامات الاستفهام ترتسم في رأسي.. لا أعلم لِمَ ينتهي كلّ لقاءٍ لي بهذا الرّجل بعلامات دهشةٍ واستفهام!

خرجتُ لأجد بيلًا تستقبلُني بلهفة، ضمّتني وهي تسأل عن حالي، طمأنْتها أنّني بخيرٍ، وطلبتُ منها أن نُغادر هذا المكان سريعًا، لم أعدْ لبيتنا كي لا تراني أمّي بهذه الحالة؛ لذا ذهبت مع بيلّا لبيتهم، واتّصلت بأبي

وأمّي أخبرُهما أنّني سأبيتُ هذه الليلة معها، ولأنّنا معتادتان على هذا الأمر وافق والداي، كنت مُتْعبة جدًّا، وأحتاجُ للنّوم، تحمّمت وبدّلت ملابسي، ثمّ خلدت للنّوم سريعًا، فتحتُ عيني على صوت بيلّا تُناديني، نهضتُ أشعر أنني لم أنمْ سوى بضعِ دقائق، إلّا أنّني صُدمت حينما نظرتُ للساعة فاكتشفت أنني نمتُ خَمسَ ساعاتٍ، حثّتني على النهوض لتناول الطعام، كنت آكل بنَهمٍ كمَن لم تأكلْ منذ أيام، راقبتني بيلّا في صمتٍ باسمةً حتى انتهيت، فمسحتْ على شعري بحنانٍ، وسألت:

_ هل تشعرين بتحسُّن الآن؟

_ أجلْ، كيف عرفتِ أنّني مُحتجزة؟ هل وصلتكِ رسالتي؟

_ لا.. لم تصلني أيّة رسائل منكِ، عرفت مِن صديقتك سلمى، قلقتُ عليكِ حينما وجدت الهاتفَ مُغلقًا، فاتّصلت أسألها، وأخبرتني بما حدث.

_ هل أخبرتِ أحدًا؟

_ لا، كنت على وشكِ أنْ أخبر والدك ليتصرّف، لكنّني خفتُ من ردّة فعله، اتّصلت بصديقةٍ لي بالجامعة، أخوها ضابط شرطة.

_ هل هو مَن أخرجنا؟

_ لا، حينما وصلنا علمْنا أنّ أحدَ الضبّاط هناك تدخّل وحلّ الأمر، أعتقد كان اسمُه.. إممم...

_ آدم محمود الحفناوي.

ـ أجل، صحيح آدم.

ضحكتُ، فسألتني عن سببِ الضّحك، قلت:

ـ هل تذكرين مُنقذي المجهول، رجل اللّوحة؟

ضيّقت عينيها، ثمّ اتّسعتا وهي تقول:

ـ أجل.. أجل، تذكّرت، لا.. غيرُ معقول! هل ما فهمتُه صحيحٌ؟

أجبتُ وأنا أضحك:

ـ أجل، إنّه هو.

سألتْ بدهشة:

ـ كيف؟! وكيف جاء إلى هنا؟ يقين، أنا لا أفهم شيئًا!

رفعتُ كتفيّ وأنا أقول:

ـ وأنا أيضًا لا أفهمُ شيئًا!

ـ حسنًا، أخبريني كيف عرفتِ أنّه هو!!

أخبرتُها بكلّ ما حدث منذ تمّ القبض علينا من الحرم الجامعي حتّى لحظة رؤيتها، كانت تسمعُني مُتّسعة العينين، وحينما انتهيتُ قالت:

ـ غريبٌ أمر هذا الرجل!

ضحكتْ وهي تُتابع:

_ يستحقّ لقب منقذكِ المجهول، وبجدارة، لكنْ لحظة.. لم يعدْ مجهولًا الآن، هل ستشكرينه أم ماذا ستفعلين؟

_ لا شيء يا بيلّا، فلنوقفِ الحديثَ عن هذا الرجل.

_ معك حقّ، سأعدّ العشاء لأبي.

رفعتِ الغطاءَ عن قدميّ، ووقفت قائلةً:

_ دعيني أساعدك.

_ لا حبيبتي، تحتاجين للرّاحة بعد هذا اليومِ المزْعج، سأعدّه سريعًا ثمّ أعود إليكِ.

ولأنّني كنت بالفعلِ بحاجةٍ للراحة لم أجادلْها، رفعتُ الغطاءَ ودسستُ جسدي تحتَه، توقّف حديثنا عنه لكنّ حديثي بيني وبين نفسي يأبى أن يتوقّف مهما حاولت!

تذكّرت كلّ كلمةٍ قالها لي، نظراته، نبرة صوته، ابتسامته، وحتى رائحة عطره، تذكّرت كلّ هذا.. وقلبي يخفقُ بطريقةٍ جنونيةٍ لم أعهدْها من قبل، سألتُ نفسي: هل يجبُ أن أذهب وأشكرَه على كلّ مرّةٍ أنقذني فيها، أم أنسى الأمر؟

زفرتُ بعنف وأنا أهزّ رأسي، وكأنّني أطرد الأفكار منها، ثمّ وضعت وسادةً عليها محاولةً دفنَ أفكاري، وجدتُ بيلّا ترفع الوسادة عن رأسي وهي تضحك قائلةً:

_ هكذا لن تكتمي أنفاسَ أفكارك، ستكتمين أنفاسَكِ أنتِ يا حمقاء!!

_ بيلّا، دعيني وشأني الآن، أريد النوم.

_ أولًا نمْتِ خَمسَ ساعات، ثانيًا إن تركتكِ أنا لتنامي هل ستتركك شياطينُ عقلك؟

قالتْها وهي تضغطُ بسبّابتها على رأسي، فاعتدلتُ من نومتي أسألها:

_ إلى أين تريدين الوصولَ يا بيلّا؟

اقتربتْ منّي وهي تُحيط كتفيَّ بذراعها قائلةً:

_ أريدكِ أنْ تُفكّري معي بصوتٍ عالٍ، لا تفكّري وحدك؛ فأنا أخاف عليكِ من أفكارك التي ربّما تدفعكِ لأفعالٍ ليست لنا.

_ لم أفهمْ قصدك؟

_ إمم.. حسنًا سأتحدّث بوضوحٍ.

تأمّلتني في صمتٍ هُنيهةً، ثمّ رمتِ القُنْبلة:

_ يقين، هل أنتِ مُعجبة بهذا الرجل؟

انتفضتُ من جلستي كالملسوعة، وأنا أنفي عن نفسي التّهمة قائلةً:

_ مستحيييل، ماذا تقولين يا بيلّا! بالطبّع لا، كيف وأنا لا أعرف شيئًا عنه سوى اسمه، ولم يجمعني به سوى موْقِفين، ثمّ كيف أعجبُ برجلٍ من الأساس! مستحيلٌ أن أفعلها، كيف تفكّرين بهذا الشكل؟!

ابتسمتْ بهدوءٍ وقالت:

_ أنا توأمُك، أعرفُك حتّى في اللحظات التي لا تعرفين فيها نفسَك جيدًا، رأيت لمعةَ عينيكِ وأنتِ تتحدّثين عنه، شعرت بدقّات قلبك وأنتِ تمسكين كفّي حينما ذكرتِ كلماته ونظراته لكِ، هذا بالإضافةِ إلى تفكيرك فيه وفيما دارَ بينكما.. هل عرفتِ الآن سببَ سؤالي؟ حتّى وإن رفضتِ الاعترافَ فلتعْلَمي أنّك معجبةٌ به، وأنّ هذا النوع من الإعجاب هو أسرعُ المفاتيح لبوّابة الحبّ، وإذا فُتحت البوّابة بالطريقة الخاطئة ستتحوّل إلى بوابة الجحيم.

_ ماذا تقصدين؟

_ أقصد أنّ قلبك أقوى من أنْ يهزمه كلامٌ معسول، أو أن يستغلّ الشّيطان هذا الباب ليدخلَ إليكِ منْه، ماذا كان سيحدث لو لم نتحدّث الآن؟ ستتركين نفسَك لأفكارك، وربّما تذهبين بحجّة شكْره، كلمةٌ فنظرةٌ فابتسامة، ثمّ يأخذ رقمَ هاتفك ليطمئنّ عليكِ بعد العودةِ للبيت، ثمّ اطمئنان كلّ يومين يصبح بعدَها كلّ يوم، بعدها اعترافٌ ثمّ لنتعرّف على بعضنا أكثرَ قبل خطوةِ الزّواج، ثمّ.. ثمّ.. ثمّ أخيرًا يُكسر قلبٌ كان نقيًّا.

صُدمتُ من حديثِها، وكأنّ أفكاري تقف عاريةً أمامها، كعادة بيلّا تُصارحني بالحقائق التي أرفضُ مواجهة نفسي بها، وكعادتي عنيدةٌ في الرّفض! قلت:

_ ألا تشعرينَ أنّكِ أصبحتِ هذه الآونة مؤلّفةَ روايات! لم يحدثْ شيء لكلّ هذا يا بيلّا.

_ سيحدثُ إن لم نوقف هذه الأفكار عند حدّها.

_ حسنًا، أخبريني أنتِ لِمَ أراه ثانيةً؟ لِمَ جمعني القدر به مرّة أخرى؟

_ ولِم تُشغلين نفسَك بالتفكير في الأمر! هو مجرّد وسيلة ساقها الله إليكِ لإنقاذك.

_ مرّتان؟!

_ يقين، أخبريني الآن بوضوحٍ ماذا ستفعلين؟

زفرتُ بغضبٍ، وأنا أعقد ذراعيَّ أمام صدري وأقول:

_ لا شيء، لن أفعلَ شيئًا يا بيلّا، هلّا أغلقنا هذا الموضوع الآن من فضلك؟

اقتربتْ منّي، وضمّت وجهي بكفّيها بحنانٍ وقالت:

_ سامحيني حبيبتي، أنا فقط خائفة، ولن أسمحَ لشيءٍ على وجه الأرض أن يكسرَ قلبك، أو يحرقَ روحك، سأحميكِ دائمًا، حتّى من نفسك.

عانقتني فشعرتُ أنّ أفكاري توقّفت فجأة، لا أعلم إن لم تكنْ بيلّا موجودة معي في كلّ خطوة أخطوها في حياتي، كم حماقة كنت سأرتكبها!

***

صعدتْ إلى سطح البيت، والشّرر يتطاير من عينيها، وجدتْه واقفًا في انْتظارها يحتفظُ بابتسامته الهادئة، زادتْها هذه الابتسامة غضبًا، وقفت أمامَه عاقدةً ذراعيها أمام صدرها، سألت بغضب:

_ هل ما سمعته صحيحٌ؟

حاولَ أن يحتفظ بابتسامته، ويتحدّث بهدوءٍ قائلًا:

_تعلمينَ أنّني لا أرغب في ذلك، لكنّني مُجبَرٌ على الرحيل.

سألتْ وهي تشيرُ إلى نفسها، وفي صوتها رجفةٌ تُنذر ببكاءٍ قريب:

_ و.. وأنا!! ماذا عنّي؟

اختفتِ ابتسامتُه والْتمعتِ الدّموع في عينيه وهو يقول:

_ بالله لا تبكِ يا كيفوك، تعلمين كمْ تقهرني دموعُك!

_ إنْ كانت حقًّا تفعل؛ ما كنت قرّرت الرحيل!

ناولَها علبةً كبيرة مليئة بحلوى الكراميل، وقبل أن يتحدّث قاطعته قائلةً:

_ تعلمُ جيدًا أنّني لم أعدْ صغيرة لتُسكّن حلوى الكراميل وجعي! وتعلم أيضًا أنّ ألمَ فراقك لا تقدرُ هذه العلبة على تسكينه.

_ أعلم، لكنّني سآتـ...

قاطعتْه بغضبٍ:

ـ لا تكذب، لن تأتي إلى هنا مرّة أخرى، ستنساني كما ستنسى هذا المكان.

ـ مستحيل أنْ أنساكِ يا كيڤوك، أنتِ رفيقتي الوحيدة وكاتمة أسراري.

تهدّج صوتُه وهو يقول:

ـ هل تعلمينَ أنّكِ الكراميل الوحيد الذي لا يسكّن ألمي فقط؛ بل يمحوه؟ فهلْ تظنّين أنّه من السهل فراقك؟!

بدأتْ تسيل دموعُها، فرَقّ قلبُه وقال:

ـ أرجوكِ يا كيڤوك، لا أريد أنْ أودّع عينيك وفيهما الدّموع، أريد أن تُصبّر قلبي ابتسامتُهما.

مسحتْ دموعها بظَهْر كفّيها، وحاولتْ أن تبتسم، فلم تنجح سوى في رسم شبحِ ابتسامةٍ باهتة، فابتسم قائلًا:

ـ كلّما أكلت الكراميل تذكّريني، واكْتبي لي الخطابات، وأنا سأرسل لكِ دائمًا، والآن افتحي العلبة، أريد أنْ أُريكِ شيئًا.

فتحتْها فوجدت علبةً صغيرة وسط قطع الحلوى، نظرتْ إليه فطلبَ منها أن تفتَحَها، فعلتْ لتتّسع عيناها وهي تسألَ:

ـ أليسَ هذا خاتم والدتِك الذي ورثته عن جدّتها وأمّها؟!

ـ أجل، أعطتني إيّاه، وطلبت منّي أن أعطيه لمَن سأتزوّجها لأنّها ستكون أقربَ إنسانة لي، ولأنّكِ الأقرب بالفعل، وستظلّين كذلك؛ فهو لكِ.

التَمَعتْ عيناها، وابتسمتْ رغمًا عنها وهي تُخرجه من العلبة، وترتديه، ضحكتْ بخفةٍ ثمّ قالت:

ـ لكنّه كبيرٌ جدًّا على أصبعي.

ـ بل أصبعك مازالَ صغيرًا، يومًا ما ستكبُرُ هذه الأصابع وتصبحُ على مقاسِه، احْتفظي به حتّى يأتي اليوم الذي نلتقي فيه هنا، وأضعُه في أصبعك، يومَها سيكون على مقاسه، وكأنّه صُنع من أجل أصبعكِ فقط يا كيڤوك.

نظرتْ إليه بعمقٍ وهي تُتمتم:

ـ وعْد؟

أومأَ باسمًا وهو يهمس:

ـ وعْد، وعدٌ مهْما حدث لنْ أخلفه يا كيڤوك.

***

مَن يحبّ شيئًا؛ يجدْ في نفسِه الشّغفَ ليعرفَ كلّ تفصيلةٍ عنْه.

دار الرشيد للثقافة والعلوم

«مذْ مات جدّي مجدي وأنا أشعرُ أنّني لن أحزن على فراقِ أحدٍ مثلما حزنتُ على فراقه، كنت أظنّ ذلك حتى استيقظنا ذاتَ يومٍ فوجدنا الزائر الرّهيب يحوم حول العمّ أيمن، انتزع روحَه وانطفأتِ الحياةُ مرّةً أخرى بفاجعةِ موْته، حزنتُ كثيرًا لفراقه، كنتُ أعتبرُه شقيق أبي بالفعل، وليس مجرّد صديق! انفطرَ قلبي لحال بيلّا، للمرذة الثانية تُحرم من أبيها، لكن هذه المرّة بلا أملٍ في العودة، انتقلت بيلّا للعيش معنا في بيتنا، حاولت كثيرًا التّخفيف عنها، حتّى بدأت تخرجُ من حزنها وتُلملم شتات نفسها، خاصّةً أنّ امتحاناتها الجامعية كانت على وشكِ أن تبدأ، لم أرَ آدم طوال هذا الوقت، حتّى أنّه لم يخطر ببالي، إلى أن تقدّمت للتدريب في جريدةٍ مرْموقة، أردتُ أن ألتحقَ بالعمل فيها دون تدخّل أبي أو أيّ من معارفه؛ لذا حاولتُ إثبات نفسي بكلّ الطّرق، وذاتَ يومٍ علمتُ بوقوع حادثة قتلٍ مروّعة لشخصيةٍ مرموقة، كنت قريبةً من مكانٍ الحادث لذا أسرعت إلى هناك، رأيتُ رجال الشّرطة في كلّ مكان، يمنعون الدّخول، وخاصّةً الصّحفيّين، لكنّني استطعتُ إيجاد ثغرةٍ تسلّلت منها إلى المكان خلسةً، وبينما أشعرُ بنشوة الانْتصار وقد اقتربتُ من هدفي؛ رآني أحدُ رجال الشّرطة، فأمسك بذراعي قائلًا:

_ مَن أنتِ؟ وكيف دخلتِ إلى هنا؟

أفلتّ يدي من قبضته، وحاولت التحلّي بالشجاعة، إلّا أنّ حروفي خرجت مُتلعثمةً وأنا أجيبه:

_ أ.. أ.. أنا صحفيّة، سـُ.. سلطة رابعة، أي من حقّي أن أتواجد هنا مثلك تمامًا.

_ يا هذه، سلطة رابعة أو أولى لا يهمّني، ممنوع تواجد الصحفيّين هنا، هيّا أخرجي في الحال وإلّا قبضت عليكِ.

_ ليس من حقّك أن تقبضَ عليّ، قلت لك من حقّي أن أتواجد هنا مثلك تمامًا.

تمتمَ بـ «حسنًا» والشّرر يتطاير من عينيه، اقترب منّي وحاول الإمساك بي فعدتُ للخلف بخطواتٍ سريعة ليصطدم جسدي بقوّةٍ في جسدٍ بشري، وقبل أن ألتفتَ سمعتُ صوته يقول:

_ دعْها وشأنها، إنّها معي.

عرفتُ صوتَه دون أن أنظر إلى وجهه، عرفت أنّه هو مِن خفقان قلبي الجنوني، والقشعريرة التي سرتْ في جسدي حينما التقطتْ أنفي رائحة عطرِه المميّز، أدّى العسكري التحيةَ ثمّ رحل وتركني أقفُ مكاني، لم أجد الشّجاعة الكافية لأنظرَ إليه، إلّا أنّني تقدّمت خطواتٍ للأمام لأبتعدَ عن صدْره الذي اصطدمتُ به منذُ قليل، وقفَ أمامي وقال:

_ هل دائمًا تحبّين توريطَ نفسك في المصائب؟!

_ أنا صحفيّة، ومن حقّي أنـ...

قاطعني قائلًا بحزمٍ:

_ لم تصبحي صحفيّةً بعْدُ يا يقين، ممنوعٌ تواجدُ الصحفيّين هنا قبل انتهاء التّحقيقات، كان من المُمكن أن يُقبضَ عليكِ، وربّما تتعرّضين للإهانة أو الأفظع منها، وغير مُستبْعد أن يعتبروكِ مشتبهًا به في القضية، أرجوكِ فكّري قبل أن تتصرّفي، عنادك سيورّطُك يومًا ما في مصيبة، ولا أعلم وقتَها هل سأكون موجودًا لأنقذك، أم لا!

كان معه كلّ الحقّ، وربّما لهذا السبب لم أجدْ ما أدافع به عن نفسي، فآثرتُ الصّمت، تابعَ صمتي بصمتٍ، ثمّ قال:

_ أعلمُ أنّكِ تريدين إثباتَ نفسك، لكنِ احْترسي أنْ تُهلكيها في هذه المحاولة.

لم أنبسْ ببنت شفة، ولّيْته ظهري ورحلت، والأفكار تعصفُ برأسي، أردت العودةَ سريعًا لرؤية بيلّا، دخلت الغرفة فوجدتُها تستعدّ للامتحان؛ لذا تراجعتُ عن البوح، ارتديتُ منامتي وحاولت أن أخلد للنوم.

وبعدَ يومين، عدتُ من جامعتي لأجدَ في انتظاري مظروفًا كبيرًا كُتب عليه.. «إلى الصحفيّة يقين محمد عبد الرحمن»، صعدتُ به إلى غرفتي، لم تكنْ بيلّا موجودة، جلست خلفَ المكتب وفتحتُ المظروف، شهقتُ واتّسعت عيناي دهشةً وأنا أجدُ كلّ المعلومات التفصيلية عن الجريمة التي وقعتْ

منذ يومين، ومُنع ذكرُها إعلاميًّا، بالإضافة لصورٍ من مسرح الجريمة، قرأتُ الأوراق وقلبي يتراقص فرحًا حتى وصلت إلى ورقة صغيرةٍ كُتب فيها «أرجوكِ، لا تعرّضي نفسَك للخطر مرّة أخرى، إذا أردتِ أيّ معلومة تخصّ قضايا من هذا النوع تعرفين مكاني، سأكون سعيدًا لخدمتك، لن أوقّع باسمي فأظنّك تعرفين المُرْسِل». ارتسمت ابتسامتي، وأعدتُ قراءة الورقة مرّات وكرّات، وقلبي يعزف لحنًا غريبًا لم أسمعْه منه من قبل!

سمعتُ صوت بيلّا تتحدّث إلى أمّي خارج الغرفة، فأسرعت وخبّأت الورقة في حقيبتي، كنت أشعرُ بنشوة غريبة، ومزاجي لم يكنْ مستعدًّا لتقريع بيلّا؛ لذا شهقتُ وزفرت بهدوءٍ، ثمّ استقبلتُها بابتسامة متوترةٍ، وأنا أسألها عن الامتحان.

لم أكنْ طبيعيّة طوالَ اليوم، حاولت أن أشغلَ نفسي بالكتابة عن الحادثة، كتبتُ تحقيقًا صحفيًّا أعجبني كثيرًا، حتى أنه نال إعجابَ أمّي، وأبي، وبيلّا حينما قرأتُه عليهم، كما نالَ أيضًا إعجابَ رئيس التحرير الذي قرّر نشر التّحقيق في صفحةٍ كاملة، وباسْمي، وفي اليوم التالي كان التّحقيق حديث النّاس ممّا دفع رئيس التحرير أخيرًا للاقْتناع بموْهبتي وتحويلي من متدرّبة إلى صحفيّة بالجريدة، كانت لحظة لا يمكن وصفُها وأنا أوقّع العقد، لم يكن محضَ عقدٍ بقدر كوْنه انتصارًا استطعتُ تحقيقَه وحدي، أو لأكون صادقة لم أكنْ لأصل إليه وحْدي؛ فلولا فضل الله ثمّ دوْر آدم لما استطعت الوصولَ لهدفي، لذا قرّرت أن أحسم أمرَ تردّدي في الفترة الماضية وأذهبَ لأشكره،

أعددتُ باقةَ وردٍ من حديقتي الخاصّة، وذهبت إليه، كان مظْهري بالورود في هذا المكان مثيرًا للفضول، تتبّعتني النظرات المتفحّصة المتسائلة حتى وصلتُ لباب مكتبه، أخبرتُ العسكري الواقف أمامَ الباب أنّني أريد رؤية آدم في مقابلةٍ شخصية، لذا سألني عن اسمي، طرقَ الباب وغاب في الدّاخل لدقائق، ثمّ فتحه وأفسح لي الطريق، وقبل أن يُغلقه أمرَه آدم بعدم الإزعاج أو السّماح لأحدٍ بالدخول، ارتبكت كثيرًا وحاولتُ أن أخفيَ توتّري بابتسامتي، وقفَ واستقبلني بحفاوةٍ، ثمّ دعاني للجلوس، وجلس في الكرسي المقابل لي، قدّم لي «الشوكولاته»، شكرتُه ثمّ سادَ الصمت لثوانٍ قبل أن أناوله الباقةَ قائلةً:

_ أتيتُ لأشكرك على كلّ ما فعلتَه لأجلي، لاحظت في المرّة الأولى التي دخلتُ فيها إلى هنا أنّك تحبّ الورود؛ لذا اخترتُ أن أعبّر عن امتناني بها.

تناولَها مبتسمًا وهو يقول:

_ قرأتُ التحقيق، موهبتُك غير عادية، أنا لم أفعلْ شيئًا يستحقّ الشكر يا يقين، ورغم ذلك هديتُك رائعة؛ فأنا أعشقُ الورود، ولاسيّما الأقحوان، كيف عرفتِ أنّني أحبّه؟

نظرتُ للباقة بتوتّرٍ وأجبت:

_ لم أكنْ أعلم، اخترتُه لأنّه يعبّر عن النقاء والصّدق، كما أنّه يوفّر الشّعور بالهدوء.

ضحكتُ وأنا أكمل:

_ وأظنّ هذا المكان بحاجةٍ ماسّة للهدوء.

ضحكَ وهو يردّ:

_ أجل، معكِ حقّ.

مرّر أناملَه على الياسمين الذي وضعتُه في الباقة، وهو يسأل:

_ وماذا عن معنى وجود الياسمين؟

_ يجلبُ الطّاقة الإيجابية، كما أنّ رائحته الجميلة تُهدّئ من الضغط العقلي.

ابتسمَ بخبثٍ وقال:

_ ونسيتِ إضافة أنّه يساعد على تعْزيز وبناءِ التّرابط في العلاقات، وأيضًا الشعور بالرومانسية.

احمرّت وجنتاي، حاولتُ إخفاء ارْتباكي بتغْيير مجْرى الحديث قائلةً:

_ غريب! يبدو أنّك تعرفُ الكثيرَ عن الورود.

ابتسمَ وأجاب بهدوءٍ:

_ مَن يحبّ شيئًا يجدْ في نفسه الشّغفَ ليعرف كلّ تفصيلةٍ عنه، بل الغريب هو أنتِ، مَن يسمعُك يظنّ أنّكِ طالبة بكلية الزراعة ولستِ إعلاميّة، هل هذا الشّغف هو نفس السّبب أم ماذا؟!

ـ أجلْ مثلما قلت، أحببتُ الورود منذ الصّغر، فقرّرت ألّا أعرف كلّ تفصيلةٍ عنها فقط؛ بل أزرعُها بنفسي، وهذه الورود من حديقتي الخاصّة.

اتّسعت عيناه انْبهارًا وهو يقول:

ـ رائع!! متى تنوين بداية مشروعك؟

انعقدَ حاجباي وسألت:

ـ أيّ مشروعٍ تقصد؟!

ـ محلّ الزهور.

سألتُه بدهشة:

ـ كيف عرفت بهذا الأمر؟!

ضحكَ ثمّ قال:

ـ تقريبًا، كلّ فردٍ في كليّتك يعلم بالأمر، ثمّ ألمْ أقلْ لكِ «مَن يحبّ شيئًا يجدْ في نفسِه الشّغفَ ليعرف كلّ تفصيلة عنه!».

سرتْ قشعريرةٌ في جسدي، نهضتُ متوتّرة من مجلسي فقال:

ـ آسف لو ضايقكِ حديثي، هلّا جلستِ من فضلك؟

حاولتُ استجماع حروفي وأنا أقول:

ـ يـ.. يجبُ أن أذهب، تأخّر الوقت، شكرًا لك مرّةً أخرى.

_ حسنًا.. حسنًا، لكنِ انْتظري لحظة، اجلسي من فضلك.

قالَها وهو يذهب نحْو مكتبه، ويُحْضر بطاقة ما، ناولها لي فوجدتُها دعوة لحضورِ افتتاح معرضٍ للوحات الفنية، سألته باستنكارٍ:

_ هل ستعرض لوحتي في هذا المعرض؟!

ابتسمَ ملء شدقيه وهو يقول:

_ أعْجَبتني الياء كثيرًا، جميل أن تنتمي إحدى لوحاتي لياءِ ملكيّتك، لكن لا تقلقي؛ لا أعرضُ لوحاتي الثّمينة والخاصّة للملأ، هي فقط لتملأ عيني وحْدي.

زادتْ جُملته الأخيرة من إرباكي، وندمتُ على سؤالي، شكرتُه وأسرعت الرّحيلَ كي لا يقضي على الجزء الباقي من وعْيي، عدتُ للبيت بصراعٍ نفسيّ لم أعهَدْه من قبل، قلبي يحبّ رؤيته والحديثَ معه، وفي ذات الوقت لعقلي رأيٌ آخر!

وكما اعْتدتُ كمّمت فاه قلبي، واستمعتُ لعقلي، احتجتُ لمعلوماتٍ في عمَلي فلمْ ألجأ إليه وبحثتُ عن طرقٍ أخرى، قرّرت أن أبتعدَ عنه، وأوئد المشاعر التي بدأت تنْمو في قلبي نحوه، كما أنّني لم ألبي دعوته لحضور المعْرض، ممّا دفعه لأنْ يُفاجئني في صباح اليوم التالي من الافتتاح، استيقظتُ لأجدَ رسالة برقمٍ غيرِ مُسجّلٍ، كُتب فيها «عيني لم تبرحْ بابَ الدّخول، كنت أنتظرُ اكتمالَ فرحتي برؤيتك، وتكْليل نجاحي بحضورك».

عرفتُ أنّه صاحبُ الرّسالة، أنّبتُ نفسي كثيرًا لأنّها خذلته في يومٍ مهمٍّ كهذا، ثمّ عاد صوتُ عقلي يعلو مُطمئنًّا أنّ ما فعلته هو الصواب، ثمّ كيفً له أنْ يستخدم سلطتَه ليصل لرقمِ هاتفي، ويرسل لي رسالةً دون استئذان!

ظللتُ أتحدّث إلى نفسي حتّى نادتني أمّي للفطور، بدّلت ملابسي ثمّ هبطت لأتناوله معهم، فلم أجد سواها تستقبلني بابتسامتِها الصافية، طبعتُ قبْلةً على جبينها، ثمّ جلست وأنا أقول:

_ صباحُ الخير أمّي، أين أبي وبيلّا؟

_ بيلّا ذهبت مُبكرًا، تريدُ أن تراجع قبل الامْتحان مع زميلاتها، وأبوكِ ذهبَ للعمل مُبكّرًا اليوم حتّى يتسنّى له حضور الحفل.

_ أيّ حفل!

_ معقولٌ يا يقين! أنسيتِ أنّ حفلَ توقيع روايتي الجديدة اليوم؟

_ لا.. لا، بالطّبع لم أنسَ يا أمّي، لكنّني مُستيقظة بنصفِ ذاكرة، سأحضر اليومَ محاضرةً واحدة، وأعود لأستعدّ للحفل، متى يصل إخوتي؟

_ أنس وزوجتُه في الطريق، وحمزة وزوجتُه سيلتقون بنا في الحفل بعد عملهما، وقبل أنْ أنسى تحدّثتْ إليَّ حفصة في الصباح تُبلغكِ سلامها هي وزوجُها.

ابتسمتُ دون تعليقٍ، فسألت أمّي:

_ يقين، هل أنتِ بخيرٍ؟

خفتُ أن تفضحني عيناي؛ لذا واريتُهما عنها، تصنّعت الانْشغال بالطعام، وأجبت:

_ أجلْ يا أمّي بخير.

_ لكن ما لاحظتُه هذه الآونة عكسُ ما تقولين! أعلم أنّكِ تحبّين الحديث مع بيلّا، لكنّها مشغولة بالامْتحانات، جرّبي أن تتحدّثي معي، صدّقيني سأتفهّم.

نهضتُ من جلستي بتوترٍ، طبعتُ قبْلةَ على وجنتها، وقلت:

_ أعلمُ بالطّبع يا أمّي، لو كان لديّ ما أقول لأخبرتك.

نظرتُ للساعة في هاتفي، وتابعت:

_ سأتأخّر عنِ المحاضرة، ألقاكِ بعد ساعتين يا مهجةَ القلب.

وقبلَ أن أهرب، قبضتْ على يدي وقالت:

_ سأتظاهرُ بالتّصديق يا يقين.

ثمّ وضعتْ يدَها على قلبي قائلةً:

_ اعتني بنفسك.

وعيناها تقولان «اعْتني بهذا القلب»، رفعتْ كفّها إلى ثغري ولثمتْهُ، ثمّ هربتُ قبل أن يتحرّر أسرُ الكلمات من صدري، وأخبرُها بكلّ شيء!

لم أستطعِ التّركيز في المحاضرة، جلستُ شاردة الذهن، ثمّ عدتُ للبيت بعد محاضرتي، فوجدتُهم مجتمعين على مائدة الطّعام، انضمَمْت إليهم ثمّ استعدّ كلّ منّا ورحَلْنا إلى الحفل، وأيضًا كان ذهني مُنصرفًا إليه، أتخيّل نظرة الخُذلان التي ارْتسمت في عينيه وهو يراقبُ بابَ الدّخول، اقتربت منّي بيلّا تسألني عن سبب شرودي فأقنعتُها أنّني مشغولة بمقالٍ جديدٍ أكتبه، أشارتْ إلينا أمّي فطلبتُ من بيلّا أنْ تسبقني إليها، كنت أشعر برغبة عارمةٍ في رؤيتِه، وبتلقائيةٍ نظرتُ نحْو الباب فرأيتُه قادمًا بحلّة سوداء أنيقة يحملُ باقةَ زهور، أدركتُ أنّني أصبحت مهووسةً في مرحلة متأخّرة دفَعَتني لأنْ أتخيّل قدومه، ويتجسّد طيفُه أمامي كأنّه موجود!

وكانتِ المفاجأةُ حينما وقفَ أمامي مبتسمًا يقول:

_ كيف حالُكِ يا يقين؟

اتّسعت عيناي، كنت أهزّ رأسي في عدم تصديقٍ، تمتمتُ دون قصدٍ:

_ هل أنتَ موجودٌ حقًّا، أم أنّني أتوهّم؟!

ضحكَ ثمّ رفع أحدَ حاجبيه وقال:

_ وهل دائمًا تتوهّمين وجودي؟

تنَحْنحتُ أحاولُ إعادة صوتي لطبيعتِه، انعقد حاجباي في غضبٍ، وسألتُ بحدّةٍ:

_ لِمَ جئتَ إلى هنا؟

رفعَ حاجبيْه مُتصنّعًا الدهشة، ثمّ قال:

ـ وهل وظّفتكِ الأديبةُ ملك مجدي لسؤال القُرّاء هذا السّؤال فوْرَ دخول الحفل؟!

أكملتُ بنفْس الحدّة:

ـ أتريدُ إقناعي أنّك هنا من القُرّاء؟

تصنّع الجديّة قائلًا:

ـ بالطّبع، إذا أردتِ سؤالي في أيّ رواية أو كتابٍ لها؛ تفضّلي.. أنا جاهز.

ـ أخبرْني ماذا تريد تحديدًا يا آدم؟

ابتسمَ ثمّ قال:

ـ رغمَ لهجتك الحادّة، هذه المرّة الأولى التي أحبّ فيها سماع اسمي.

ضغطتُ على أسناني، وأعدتُ السؤال:

ـ ماذا تريد؟

أشهَرَ رواية أمّي أمام عيني، وقال:

ـ فقط توقيعَ الرّواية وتقديمَ الزهور لكاتبتي المفضّلة.

ثمّ ترَكني واتّجه نحو طاولة أمّي، وقّع الرّواية، قدّم لها الزهور، وخرج

دونَ أن ينظر إليّ، تابعتُه بدهشةٍ حتّى اختفى عن ناظري، ارتجفَ جسدي فزعًا من صوت بيلًا القريب من أذني:

ـ مَن هذا الرّجل؟ أشعرُ أنّني رأيته من قبل!

ـ أفزعتني يا بيلّا، وما شأني أنا، لِمَ تسألين؟!

تابعت ساخرةً:

ـ أها.. صحيح وما شأنُك! ربّما كان واقفًا يتحدّث ويضحك معكِ وهو يسألُ عن مكان المِرْحاض، أليس كذلك؟!

زفرتُ بضيقٍ، وقلت:

ـ بيلّا، كفَى؛ يؤلمني رأسي كثيرًا.

أخرجتْ مُسكّنًا من حقيبتها، وقالت:

ـ حسنًا يا يقين، تناولي هذا الآن، ولنَا سهرةٌ طويلة الليلة.

قالتْها ثمّ تركتني لتُرحّب بإحدى صديقاتها الحاضرات، انتهى الحفل، وبمجرّد وصولنا للبيت هربتُ لغرفتي سريعًا، وتصنّعتُ النّوم، شعرت ببيلّا تدخل الغرفة، نادتْني فلم أردّ؛ لذا اقتربتْ من أذني وهمستْ «تصرّفاتك أكّدت لي أنّ شكّي في محلّه، وأنّ هذا الرجل هو آدم، لن أضغطَ عليكِ أكثر، سأنتظرُ أن تتحدّثي إليَّ كعادتك، تصبحين على خير»، فتحتُ عيني بعدما خرجت، وأنا أشعرُ بالضيق، الخوفُ يسيطر على قلبي ولا أعلم لهذا الشّعور

سببًا، حاولتُ النّوم فلم أستطع، حتّى سمعت إشعارَ رسالةٍ في هاتفي، وجدتُها منه، اعتدلتُ من نومتي بلهفةٍ وفتحتُها لأجد:

«لم أستطعِ النّوم، ربّما لأنّني كذبت عليكِ الليلة، سأخبركِ بالحقيقة، أتيت للحفلِ اليومَ لرؤيتك، لا لتوْقيع الرّواية التي لم أقرأ منها سطرًا! أنا فقط أردتُ رؤيتك، تصْبِحين على خيرٍ يا......».

ظللتُ أكرّر قراءة الرسالة، تارةً بعينيَّ، وتارةً بلساني، وفي كلّ مرّة يردّدها قلبي وهو يخفقُ بجنون، وكعادتي نهرتُ نفسي، تركت الهاتف وحاولتُ النّوم، أرهقتني محاولاتي فاستيقظتُ متأخّرةً، وفاتتني المحاضرة الأولى، لم أجدْ أحدًا بالبيت؛ لذا بدّلت ملابسي وقرّرت أن أتناول فطوري في أحدِ المقاهي القريبة من الجامعة، والذي اعتدتُ ارتياده، طلبتُ الفطور وجلستُ أنتظرُ المحاضرة التالية، وأُراجع مقالي الجديد على الحاسوب، وصلتْني رسالةٌ على هاتفي من آدم، فيها «صباح الخير»، لا أُنكر أنّ قلبي خفقَ مذْ لمحت اسمه، لكنّ غضبي منه كان أكبر؛ لذا ارتديتُ قناع الحزم واتّصلت برقمه، وبمجرّد أن سمعت صوتَه انطلقتِ الحممُ البركانية من لساني أنْهرُه على رسائله وتعدّيه على خصوصياتي، كان يسمعني في صمت حتّى شككتُ أنه أغلق الخطّ، فسألت: «هل مازالتَ معي؟» رأيتُه يقفُ أمام طاولتي فجأةً ليُخرج عينيّ من محجَرَيهما وهو يُجيب «أجل ما زلتُ معكِ».

***

بعْضي لديَّ، وبعْضي لديّكِ..

وبعْضي يشتاقُ لـ بعْضي.. فهَلّا أتيتِ؟!

محمود درويش

دار الشيخ للثقافة والعلوم

«خرجتْ شهقةٌ خافتة مِن صدْري، ثمّ عادتْ عيناي إلى محجريهما، واشتعلَ الغضب فيهما، انتفختْ أوداجي وأنا أصيحُ في وجهه:

ـ هل أنتَ مجنون؟! أيُعقل أنّك تُراقبني؟ كُفّ عن ملاحقتي واخْرج من هنا في الحال.

يبدو أنّ صوتي كان عاليًا دون شعورٍ منّي، فقد انتبهت إلى أن الهدوء يسودُ المكان والعيون تُحدجُني باستنكارٍ، خفضتُ صوتي وأنا أجزّ على أسناني، وأقول:

ـ مِن فضلك، اخْرُج من هنا في هدوءٍ، ولا أريد رؤيتك أو رؤية رقمك على هاتفي مرّة أخرى، حسنًا؟!

حدّق فيَّ للحظة، ثمّ تقلّصت عضلات وجهه، وبدا واضحًا أنّه قرّر ألّا يكترث لحديثي، سحبَ كرسيًّا، وجلس في هدوءٍ مُستفزٍّ، وقال:

ـ اجلسي من فضلك يا يقين.

أجبتُ في إصرارٍ:

ـ لنْ أجلس مادمت هنا، إمّا أن ترحل أو سأحمل أغراضي وأرحل أنا.

أجاب بإصرارٍ فوقَ إصراري:

_ لن أرحلَ حتّى تسمعيني، وإن قرّرتِ الرحيل فلن أكفّ عن ملاحقتك في أي مكانٍ حتى تسمعين.

سكتَ هنيهةً ثمّ تابع:

_ اجلسي من فضلك، أعدُك إنْ وافقتِ على الجلوس فقط لنصف ساعة بعدها لنْ أُريكِ وجهي، ولا حتى رقم هاتفي مرّة أخرى، إلّا إذا بادرتِ أنتِ أو حتّى أعطيتني الإشارة للعودة.

بدا كلامُه منطقيًّا، ثمّ أنّني لن أخسر شيئًا إذا سمعته. هكذا قلتُ لنفسي لأجد سببًا مُقنعًا لقبول عرضه، جلست فقال:

_ ماذا أطلب لك؟

نظرتُ لساعتي، وقلت بِحدّةٍ:

_ مرّت ثانيتان من النّصف ساعة.

ضحكَ ثمّ قال:

_ حسنًا، وُلدتُ وتربّيت في بيتٍ يسير وفق نظام عسكريّ صارم، كلّ شيءٍ بموعد، حياةٌ منظّمة حدّ الاختناق، محسوبة الخطوات والمشاعر، ممنوعٌ أن أقرّر الخروج عن المألوف، أو حتى أن أُخطّط شيئًا لنفسي، أنا فقط أنفّذ الخططَ التي يضعُها لي أبي، أحببتُ الرّسم وحلمت أنْ ألتحق بالفنون

الجميلة، لكنّه رفضَ وأرغمني على كلية الشّرطة لأصبح نسخة منْه، الوحيدة التي كانت تُهوّن عليَّ ما أنا فيه هي أمّي، كان يربطنا حبّ لا تتّسع له الدنيا وما فيها.

كنتُ سأسأل بغضبٍ.. وما شأني بقصّة حياتك، لكنّي توقّفت حينما اكتسب صوتُه لمحةَ حزنٍ وهو يُتابع:

_ ماتت أمّي فانتهتْ حياتي، بعدها أعلنتُ التمرّد، أوّل قرارٍ قمت بتنفيذه بعد عزاء أمّي أنّني تركت البيت، وعشتُ وحدي بعيدًا عن أبي، ورغم أني أصبحتُ شرطيًّا ناجحًا في عملي كما أراد عدتُ أستعيد شغفي من جديد، عدتُ أعيش كلّ المغامرات التي حُرمتُ منها، وأوّل مغامرة قرّرت أن أخوضَها هي السّفرُ تحديدًا إلى الإسماعيلية في بيتٍ كنّا دومًا نستأجره وتحبّه أمّي، اشتريتُه من أجلها، وانعزلتُ عن العالم فيه، أستيقظ من الصّباح الباكر فقط لأرسمَ وأجلس أمامَ البحر، وفي إحدى المرّات استيقظت مُتأخّرًا عن موْعدي اليومي، نظرتُ من النافذة فرأيت حورية تخرجُ من الماء، خرجْتُ من البيت لأراها عن قُربٍ فاختفت، ظننت أنّها محْضُ تهيّؤات، حتّى تعمّدت أنْ أنتظرها في اليوم التالي فرأيتها، ملامحها نادرة، حرّضت ريشتي على الرّسم، وعلمتُ أنّني على وشك بداية مغامرةٍ جديدة، قادَني إليها وجهُها، عكفتُ على اللّوحة حتى حلّ الليل، أرسم ما أتذكّره من ملامحها، انتظرتُها في اليوم التالي، وقتها لم تكن وحدَها، فتاة أخرى كانت معها، لم أخرج، ظللتُ أراقبها من نافذة غرفتي مُتخفّيًا، تحكي عيني ملامحَ وجهها للريشة، وتحكيها

ريشتي للوحة، حتّى غفوت من شدّة التّعب، استيقظتُ في المساء، وجدتُني أنام على الأرض، نظرتُ من النافذة بعيونٍ ناعسة، رأيتُها تجلس مع أسرتها أمام البيت المجاور لبيتي، راقبتهم من خلفِ النّافذة، أرْغمتني ضحكاتُهم على الضّحك، دفء الحبّ والترابط بينهم مسّ قلبي، فذكّرني بحنان أمّي، راقبتهم حتّى دخلوا إلى البيت، وفي اليوم التالي، أوّل ما فعلتُه بعدما فتحتُ عيني هو تجهيزُ اللّوحة جانب النّافذة، ثمّ أسرعتُ ووقفتُ في مكاني اليومي لأُراقبَ ملهمتي، لم أجدْها، ظللتُ منتظرًا، السّاعات تمرّ ولا أثر للحوريّة، مرّت الأيّام وأيضًا لا أثر لها، أتَعْلمين أنّني طفت شوارع الإسماعيلية بحثًا عنها!

لا أعلمُ ما الذي حدثَ لي، وكيف تعلّقت بها لهذا الحدّ! علمتُ ألّا جدْوى من انتظاري، سافرتُ لمباشرةِ عملي، وبدأتُ أتناسى وجهَها، فعاندني طيفُها الذي سكنني وأصبحَ لا يفارقني لحظة، أصبحتُ منطويًا على نفسي حتّى طلب منّي أحدُ أصدقائي أنْ أعتني بجَرْوه لحين عودته من السفر، قبلتُ عرضَه، أنا أيضًا كنت بحاجةٍ لِمَن يؤانس وحْدتي، ولم أرغب أنْ يكون مِن البشر، اعتاد عليّ سريعًا، وأصبح صديقي المقرب، كنت دومًا أحْكي له عنها، وأشعرُ أنّه يفهم ما أحكيه حينما يُحدقُ معي في اللّوحة!

مرّ عام، وعاد الصيف، سافرتُ إلى بيت الإسماعيلية، اصطحبت الجرْوَ معي، ظننتُ أنّني أحلم حينما رأيتُها أمامي، قرّرت ألّا أتركها تختفي هذه المرّة، خرجت ومعي الجرْو أُخبره بفرحٍ أنّ مُلهمتي قد عادت، جلست على

الشاطئ في انتظارِ خروجها من الماء، رأيتُها تغرق، وبدون تفكيرٍ أسرعتُ نحوها وأخرجتُها، وبعدما عادتْ لوعيها رحلتْ دون أن تتفوّه بكلمة، ثمّ كعادتها اختفتْ وتركتني أبحثُ عن طيفها حتّى رأيتها أمامي، والعندُ يلمع في عينيْها، تتحدّث بشجاعةٍ تليق بشخصيةٍ جذّابة كشخصيتها، أمجنون أنا لأتركَها بعدما عادتْ إليّ وحدها؟!

كنت أسمعُه في ذهولٍ، لا أصدّق أنّني بطلة قصته!

عجزَ لساني عن الردّ، فتبسّم قائلًا:

_ أنهيتُ الحكاية التي أردتكِ أن تسمعيها، أعتذر أنها تعدّت النصف ساعة لكنّني مازلت عند وعْدي، لن أُريكِ وجْهي ولا حتّى رقم هاتفي مرّة أخرى إلّا إذا بادرتِ أنتِ أو حتّى أعطيتني الإشارةَ للعودة، اعتني بنفسك جيدًا.

قالها ثمّ رحلَ وتركني غارقة في ذهولي ومشاعري المتخبّطة، لم أستطعْ حضور المحاضرة؛ لذا عدتُ للبيت باكيةً، ولا أعلم سببًا لدموعي!

هل تأثّرت بلمْحَة الحزن التي لمستها في صوتِه؟ أم أبكي لأنني حائرة ولا أعرف كيف أتصرّف! قرّرت هذه المرّة أن أقصّ كلّ شيء لبيلّا، وكأنّها سمعت نداءَ روحي؛ وجدتُها تفتح البابَ بهدوءٍ، فضممْتُها وأنا أبكي، رفعَتْ يديها وأحاطتْ بهما جسَدي، ضمّتني إلى صدْرها وسألت بخوفٍ عن سبب انْهياري، لم أستطع استجماعَ حروفي، فكفّتْ عن السؤال وظلّتْ تربتُ

على ظهْري وتمسحُ على رأسي إلى أنْ هدأتُ قليلًا، بدأتُ أقصّ لها كلّ شيءٍ مذْ أرسل لي المظروفَ حتّى مقابلتي له اليوم، أخبرتها بكلّ مشاعري نحْوه، ثمّ ختمتُ حديثي بغضبٍ قائلةً:

_ أعلمُ جيدًا ماذا ستقولين، ستلومينني على ذهابي إليه، وعلى السّماح له بالجلوس معي اليوم، وستؤنبينني على حماقتي، أعلمُ هذا جيدًا.

ابتسمتُ بهدوءٍ، مسحت دموعي وقالت:

_ لا.. لن أفعل، أشعرُ بما في قلبك يا يقيني، دائمًا كنت أشعرُ بك حتى لو ألقيت عليكِ اللوم فلأنّني أخاف عليكِ وعلى قلبك.

_ إذًا، ماذا عليّ أن أفعل؟

_ ألم يعدك أنّه لن يظهر أمامَك مرّة أخرى؟

أومأتْ فتابعت:

_ أتمنّى أن يكون صادقًا في وعده، كلّ ما عليك فعله هو أنْ تنشغلي عن التّفكير فيه بحياتك كما كانت، وكأنه لم يقلْ شيئًا؛ لا بل وكأنّك لم تقابليه من الأساس، وكوني على يقينٍ إنْ كان نصيبك سيجره الله إليكِ جرًّا في الحلال.

ربتتْ على قلبي وتابعت:

_ الحلالُ الذي لا نعرفُ صورةً لاجتماع رجلٍ وامرأة سواه.

ضمّت كفيَّ، وقالت برجاء:

ـ عِديني ألّا تخفي عني شيئًا آخر، وأنْ تعتني بقلبِك جيدًا.

أطالتِ النّظر في عيني بعمقٍ، وكأنّها اخترقت وجعَ روحي الذي أحاول تناسيه طيلةَ حياتي ،وقالت:

ـ قلبُك لن يتحمّل وجعَ التعلّق مرّة أخرى، أعلم أنّ الأمر سيكون صعبًا، كما أعلم أيضًا أنّكِ فتاة قوية عنيدة.

قالتْها وهي تضحكُ وتمسك أرنبةَ أنفي بإبهامها وسبّابتها، ثمّ ضمّتني وهي تدعو لي.

مرّ شهر ومازال يفي بوعْده، لم أرَه أو ألمح رقمَ هاتفه، ثلاثون يومًا كنت فيهم أحاربُ قلبي، أحاول جاهدةً وأدَ مشاعري التي احتلّته رغمًا عنّي، كلّما مرّ ببالي وشعرت برغبةٍ في رؤيته أو إيجاد ذريعةٍ لمحادثته أشغل نفسي، إمّا بالقراءة، كتابة المقالات، أو قراءة مقالاتٍ لأشهر المجلات والجرائد، وحينما تفشلُ هذه الطرق ألجأ لنصيحةِ بيلّا، أتوضّأ وأدعو الله أنْ يمنح قلبي القوّة، كما لم تتركْني بيلا وحدي للتّفكير ينهشني.

وذاتَ يوم، طلب منّي رئيس التحرير أن أكتب مقالًا عن تاريخ مصر الإسْلامي القديم لتنشيط السياحة الداخلية، بالطّبع لن أجد أفضل من شارع المعزّ ليلهمني، لذا حملت حقيبتي والكاميرا الخاصّة بي وذهبت إلى هناك، زرت كلّ أثرٍ تاريخي في شارع المعزّ، التقطت الكثير من الصور

ودوّنت النّقاط التي سأكتبُ عنها، شعرتُ بالتعب وبدأتْ أصواتُ الجوع تصدر من معِدَتي، فقرّرت أن أتناول وجبةً خفيفة ثمّ أكمل جوْلتي، دخلت حارةً ضيقةً لأختصرَ طريقي، ومنها لحارةٍ أخرى حتى اكتشفت أنّني ضللت الطريق، رأيتُ مجموعةَ صبية يقفون في أحدِ الأركان، فسألتهم عن طريق العودة للشّارع الرئيسي، نظراتُهم كانت مُريبة؛ لذا شكرتُ المُتحدث قبل أن يُكمل الوصف، وأسرعت الخُطى، كنت أتحدّث إلى صديقةٍ لي بالهاتف حينما فاجئني أحدُهم وسحبَ حقيبتي من ذراعي بالقوّةٍ، صرخت وأمسكت الحقيبة بكلّ قوّتي، فركلني آخر، سقطتُ أرضًا ونجحا في سرقة الحقيبة والفرار بسرعة، نهضتُ من الأرض وركضتُ خلفَهما، لكنني لم ألحقْ بهما، نظرتُ حوْلي فلم أعرفْ أين أنا، جلست القرفصاء ألهثُ من التعب، عاجزةٌ لا أدري ماذا عليّ أن أفعل!

انْتبهتُ للهاتف في يدي، وحمدتُ الله أنّه ليس في الحقيبة، كنت سأتّصل بأبي عندما خطرَ ببالي آدم، اتّصلت به فردّ واللّهفة تُسيطر على صوته:

_ هل حقًّا يقين تتّصل بي، أم أنّني أتوهّم؟

أجبتُه بصوتٍ باكٍ:

_آدم، أنا في ورطة، أحتاج مساعدتك.

سألني بخوفٍ عمّا حدث، فأخبرته بحروفٍ مشتّتة، وأنفاس متقطّعة ما حدثَ لي من البداية، حاول طمأنتي ثمّ طلبَ منّي أن أعرف اسمَ الشارع

الذي حدثتْ فيه السّرقة، وأسبقُه إلى القسم التّابع للمنطقة، أنْهيت المكالمة ومازال جسدي يرتجفُ من الخوف، عدتُ للشّارع الذي حدثت فيه السرقة، قابلتُ امرأة تمرّ فيه، فسألتها عن اسمِه وعنِ الطّريق للشارع الرئيسي، أخبرتْني بالاسم ووصفتْ لي الطريق، شكرتُها ثمّ أسرعت الخطى نحو الطّريق الذي وصفتْه، استقلّيت سيارة أجرة، وفي طريقنا تذكّرت أنّ جلّ المال الذي أملكُه في حقيبتي، علمتُ في هذه اللحظة قيمة نصيحةِ أمّي التي دومًا تنْصحني بها أنا وبيلّا «لا تضَعا المالَ كلّه في مكانٍ واحد، البعض في الحقيبة والبعضُ الآخر في جيب الملابس» نهرتُ نفسي، ولكن بعد فواتِ الأوان، فكّرت أن أتّصل بآدم لكنّ حيائي منعني، وقرّرت أن أطلب من السّائق انتظاري حتى أُنْهي الإجراءات مع آدم، ثمّ يوصّلني للبيت وأعطيه مالَه، وحينما وصلنا القسْم، فوجئتُ بآدم ينتظرني عند البوابة، وكأنّه سمع صراعي مع نفسي، دفعَ للرجل ثمّ التفت لي سائلًا «كيف حالُك؟»، أجبتُ بخوفٍ «لست بخيرٍ، الحقيبة فيها كلّ شيء يخصّني تقريبًا؛ أوراقي، الكاميرا، ومفتاح السيارة».

_ أين تصفّين سيارتك؟

_ هناك، قرب بوابة الفتوح.

صمتَ قليلًا يُفكّر، ثمّ قال:

ـ لا تقلقي، سُأعيد حقيبتَك، لكنِ اهدئي قليلًا من فضلك، وحاولي تذكّر ملامحَهما جيدًا، أو ملامح أحدِهما حتى نصلَ لمكتب صديقي، أثقُ في قدراتِه، هو تقريبًا يعرف كلّ ساكني المنطقة، هيا بنا.

هززتُ رأسي بنعم، ثمّ سرتُ خلفه حتى مكتب صديقه، رحّب بنا ويبدو أن آدم أخبره في الهاتف بما حدث، سألني عمّ حدث بالتفصيل وعن المكان الذي حدثت فيه السرقة، ومواصفات الفاعلين، أجبتُه عن كلّ أسئلته بدقّة، ماعدا وصف السّارقين، تذكّرت ملامح أحدِهما فقط، ويبدو أنه مشهورٌ بالسّرقة؛ فقد عرفه الضّابط على الفور حينما وصفتُه، اتّصل بأحدهم، لم أركّز في المكالمة؛ كنتُ مُنشغلة بنظراتِ آدم الحانية وابتسامتِه المُطمئنة وهمسِ شفتيه بـ«لا تخافي»، بعدما انتهتِ المكالمة بدقائق، طُرق الباب.. ثمّ دخل رجلٌ وفي يدِه مُغلّف، عانق آدم بحميميّة، يبدو أنه أيضًا صديقه، ثمّ حيّاني بابتسامةٍ مجاملة، وضع المُغلّف أمام الضابط الآخر ثمّ سحب كُرسيًّا وجلس جانبَ آدم يسألُه عن أحواله، تركتهما يتسامران ونظرت للضّابط الجالس خلف المكتب وهو يناولني صورًا، ويطلب منّي التركيز جيدًا، وفحْصها ثمّ إخباره إذا وجدت السّارق بينهم، أغمضت عيني برهةً أحاولُ تذكّر ما علق بذهني من ملامحه، ثمّ فتحت عيني وبدأت أفحص الصّور، أوّل ستّ صور لم يكونا منْهم، نظرت إليه وقلت «أخبرتكم أنهما كانا صبيّين، وليسا رجلين كمّن في هذه الصور».

أجاب «أتذكّر ما قلتِه يا آنسة، فقط افْحَصي الصّور كاملةً أوّلًا»

عدتُ للصّور، توقّفتُ عند الصّورة السابعة، دقذقتُ فيها قليلًا ثمّ هتفت «هذا لم يكنْ منْهما، لكنّه كان يقف ضمْن المجموعة التي سألتها عن الطّريق، هو مَن كان يصف لي..»

نظرَ للصّورة قليلًا، ثمّ قال «حسنًا، تابعي فحْصَ الصور».

بعد صورتيْن وجدتُ السّارق، وبعدها صورةُ الذي دفعني على الأرض تذكّرت ملامحه حينما نظرتُ للصّورة، هتفت بانتصارٍ «إنّهما هما، أنا متأكّدة».

ناولَ الصّور للضّابط الذي أحضرهم، تفحّصهم هُنيهةً، ثمّ قال لآدم مُطمئنًا «الحمد لله، مادام هؤلاء هُم المتّهمون، إذًا الأمرُ بسيطٌ جدًّا، والليلة ستكون المسْروقاتُ بالكامل مع خطيبتك».

اسْتوقفتْني كلمة «خطيبتك»، سرتْ قشعريرةٌ في جسدي، ونظرتُ لآدم بعينين مُتّسعتين، وجدتُه ينظرُ لي مبتسمًا، ولم يُصحّح الكلمةَ أو يوضّح لصديقيْه علاقتي به، فقط شكَرَهما وأخبرَهُما أنّه سينتظر اتصالهما، كما أوْصاهما بإعادةِ كلّ شيءٍ في حقيبتي بعد أنْ طلب منّي كتابة كلّ محتويات الحقيبة المفقودة. غادرْنا المكان، كنّا نقف عند سيارته حينما سألني:

ـ هل أنتِ بخيرٍ الآن؟

أجبتُ:

ـ ربّما أنا أفضل الآن، لكنّني سأكون بخيرٍ حينما يطمئنّ قلبي على أغراضي.

ـ لا تقلقي، كلّ شيءٍ سيعود إليكِ الليلة بإذن الله.

ـ بإذن الله، شكرًا لك يا آدم، أعلمُ أنّني أُزعجك دائمًا.

قاطعني:

ـ أيّ إزعاجٍ هذا الذي تتحدّثين عنه! أتعرفين ماذا أريد الآن؟

ـ ماذا؟

ـ أنْ يمسكوا بالسّارقين لا ليُعيدوا الحقيبة؛ بل لأشكرَهم لأنّهم كانوا سببًا في رؤيتك.

ابتسمتُ، فتابعَ وهو يصفّق:

ـ وأخيرًا نجحتُ في رسم ابتسامتك.

اتّسعت ابتسامتي أكثر، وشكرتُه، فقال:

ـ هيّا لأوصلكِ إلى البيت، تحتاجين للراحة.

أجبتُ بارتباكٍ:

ـ شـ شكرًا لك، سأتّصل بأبي يُرسلُ لي السائق الآن.

ضغطتُ على زرّ الهاتف فتفاجأت بأنّ شحن البطارية قد نفد، دومًا تفعل بي هذا في الأوقات العصيبة! قال ضاحكًا:

ـ حتّى بطارية الهاتف تؤيّدني، اجلسي على الأريكة الخلفيّة، واعتبريني سائقكِ الخاصّ، وأنا لن أتفوّه بكلمة، وأظنّك جرّبتني في الوعود.

لم أجدْ بدًّا من الموافقة، فتح لي بابَ السيارة الخلفي، ركبت منكمشةً على نفسي، وركبَ هو خلفَ المقْوَد، بالفعل لم يتفوّه بكلمةٍ حتّى أنّه لم ينظر لي، لكنّ الكلمات التي لم يقُلْها، والنّظراتِ التي لم يتجرّأ عليها؛ كانت أشدّ وقعًا على قلبي.. وصلنا للبيت، فقال:

ـ لنْ يغمض لي جفنٌ قبل أن تعود إليكِ حقيبتك، اعتني بنفسك جيدًا.

ابتسمتُ بامتنانٍ وشكرتُه، ثمّ دخلت للبيت، أغلقتُ الباب ووقفت خلفَه ألتقط أنْفاسي التي كنت أحبسُها مذْ تحرّكت السيارة من أمام القسم، أغمضت عيني، فارتسمتِ ابتسامتي رغمًا عنّي، تذكّرت ابتسامته الحانية، كلمة صديقِه التي لم يُصحّحها، و...

ـ يبدو أنّه لم يفِ بالوعدِ كما توقّعت!

أيقظتني جُملةُ بيلّا من أحلامي، قلت مُدافعةً عنه:

ـ لا تظلميه، هو لم يفعلْ شيئًا.

ـ إممم.. هذا يتوقّف على سماعِ ما حدث، أين سيارتك؟ لم أسمعْ بوقكِ المُعتاد، ثمّ إنّي نظرتُ للتّو من الشرفة فلم أجدْها!

ـ لقد سُرقت اليوم.

سألتْ بدهشة:

ـ ماذا! كيف حدث ذلك؟ ولِمَ لمْ تتّصلي بنا؟!

ـ اهدئي يا بيلّا، سأحكي كلّ شيء، لكنْ دعينا نذهب للغرفة أولًا.

دخلنا الغرفة، وقصصت لها كلَّ ما حدث، لم تُعلّق على اتصالي بآدم ولا كلّ ما حدث معه، لا أعلم هل تعمّدت هذا التّغافل أم لا! شغلت أغراضي المسْروقة تفكيرَها، وأخذت تدعو الله أن يردّ ضالتي، وفي العاشرة والنّصف مساءً وجدتُ شاشة هاتفي تُضيء باسم آدم، أجبته على الفور فقال:

ـ هل أيقظتك؟

ـ لا، أنا لمْ أنمْ.

كان الفرح يكسو صوتَه وهو يقول:

ـ إذًا حان وقتُ النّوم براحةٍ وهناء، أنا أنتظرُكِ في سيارتك أسفلَ البيت.

سألت بدهشة:

ـ سيارتي! ماذا تقصد؟

ـ ستفهمينَ قصدي إذا أتيتِ الآن.

كانتْ بيلّا تتابعني، تركتُ الهاتفَ من يدي، فسألت:

ـ ماذا حدث؟ هل وجد الحقيبة؟

قلتُ وأنا أركض نحو بابِ الغرفة:

_ أظنّ ذلك، إنّه بالأسفل.

أمسكتْ ذراعي قائلةً:

_ انتظري يا حمقاء، هل ستقابلينه بمنامتك وشَعْرك!؟ ارْتدي شيئًا حتّى أخبرَ أباكِ ليُقابله معكِ.

سألتُ مُتّسعة العينين:

_ أبي! ماذا ستُخبرينه؟

_ دَعي الأمرَ لي، لكن مِن المستحيل أن أجعلكِ تُقابليه وحدكِ في هذا الوقت وعمّي محمد بالبيت، إذا علم بالأمر لن يُسامحنا أبدًا.

ذهبتْ لتخبر أبي، وارتديتُ أنا زيّ الصلاة، كنت أهبط من الدرج حينما قابلني بنظرةِ عتابٍ، ثمّ سبقني نحو بابِ البيت، تفاجأ آدم به فاعتدلَ في وقفتِه وحيّاه بهيبةٍ واحترام، استقبله أبي بودّ، وشكَرَه، ثمّ التفت لي، ناولني الحقيبة، وقال:

_ هل هذه كلّ أغراضكِ يا يقيني؟

تناولتُ الحقيبة بارتباكٍ، تفحّصتها ثمّ أجبتُ بنعم، عاد ليشكرَه مرّةً أخرى، دعاه لكوبٍ من الشاي، فاعتذرَ آدم بلطفٍ على وعدٍ بتكرار الزّيارة، لكن في ظروفٍ أفضل، ثمّ رحل فَرَماني أبي بنظرةِ لومٍ أخرى دون أن يتفوّه

بكلمةٍ، وسبقني للدّاخل، تابعته يدخلُ غرفة مكتبه ويُغلق بابها، ضمّتني بيلّا بفرحٍ، لكنّ نظراتِ أمّي تُشبه نظراتِ أبي كثيرًا رغم أنّها تُهنئني وتطمئنّ عليّ، ودونً أن تسأل عن التوضيح، قلتُ بارتباكٍ:

_ أمّي، إنه.. أ.. أنا.. أقصد لقد لجأتُ إليه لأنّه ضابط، وربما يساعدني أسرع مـ من....

فاجئتني بسؤالها:

_ رأيتُه من الشرفة، أليس هذا هو نفسَ الشابّ الذي حضر حفل توقيعي وكان واقفًا يتحدث إليكِ؟

شعرتُ أنّ أمّي ألقت في وجهي دلوًا باردًا، تشتّتت حروفي، فوجدتُ بيلّا تردّ عنّي:

_ أجل يا أمّي، يوم الحفل كان أحدَ القراء، ويقينُ لم تكن تعرفُ ذلك هي... أقصد يعني هُما بينهما عمل، و...

قاطعتْها أمّي وهي تنظرُ لي:

_ سأسمعُ منها كلّ شيءٍ يا سلسبيل، لكنْ ليس الآن، عليها أولًا أن تُوضّح ما حدث الليلة لأبيها، أظنّه ينتظرها في الداخل.

اتّجهتُ بهدوءٍ نحو غرفة المكتب، طرقتُ الباب ودخلت أحاول لملمةَ شتاتي، تصنّع الانْشغال بالأوراق الموضوعة أمامه، جلستُ أمامه في صمتٍ، فخلع نظارتَه الطبية وقال:

_ تفضّلي، أسمعك.

شهقتُ ثمّ زفرتُ كلماتي جُملةً واحدة:

_ أعرف أنّك غاضبٌ منّي لأنّني لم أخبرْك بأمر السّرقة، والله كنتُ سأتّصل بك، لكنّني تذكّرت أنه ضابط، وربّما يساعدني بشكلٍ أسرع نظرًا لطبيعة عمله، وحدث بالفعلِ ما فكّرت فيه.

_ هل تظنّينه مُبرّرًا كافيًا؟ تعلمين أنّني على صلةٍ بمَن في رُتبٍ أعلى منه، وكنّا سنصلُ لأغراضك ربّما أسرع منه أيضًا.

_ أعلمُ يا أبي، لكنْ وقتما حدثت السّرقة توقّفت رأسي عن التّفكير، أنا حقًّا لم.. لم أقصـ...

لم أكْملْ جُملتي، فقد تسلّمت عيني دفّة الحديث، استغلّيت نقطة ضعف أبي دونَ قصدٍ، يكره أنْ يرى دُموعي، نهضَ من مجلسه ورفعني من كتفيّ إلى صدْره، تشبّثت به فضمّني بقوّةٍ وهو يمسح على رأسي بحنانٍ، ويقول:

_ مادام أبوكِ موجودًا؛ فلا مجالَ للخوف أو الدموع، أرجوكِ يا يقيني لا تُكرّري هذا الأمر، شعورٌ مؤلمٌ أنْ تتأذّى صغيرتي ولا أكون مُنقذها، حمايتك واجبي أنا فقط.

ابتسمتُ، التقطتُ كفّه وقبّلته، ثمّ طبعت قبْلَة على جبينه، وأنا أدعو:

_ لا حرمني اللهُ منك يا أعظمَ أبٍ في الكون.

في هذه الليلة، لم أنمْ من كثرة التّفكير، شعرتْ بي بيلّا؛ فلم تضغط علي بالحديث في الأمر، تركتني لضجيجِ رأسي، وترقُّبي لمواجهة أمّي المحْتومة، وبما أنّ النّوم جافاني، التقطتُ هاتفي وفتحتُ حساب «الفيس بوك» الخاصّ بي، كنت أتجوّل بين الصفحات بلا هدف، وصلتني رسالة من إحدى صديقاتي فقمتُ بالردّ على رسالتها، ثمّ انتبهتُ إلى وجود رسالة من حسابٍ ليس في قائمة الأصدقاء، تفاجأتُ حينما وجدتُها من آدم، فتحتها وقرأت:

«هل تسبّبت بمشكلةٍ، أم كلّ شيء على ما يرام؟»

ابتسمتُ ثمّ أرسلت:

«لا تقلقْ، كلّ شيءٍ على ما يرام، شكرًا لك».

«لم أفعل شيئًا، فقط قمتُ بواجبي، ثمّ إنّي ظننتكِ ستنامين بعد عودة أغراضك! لم مازلتِ مستيقظة حتى الآن؟»

وقفتْ أصابعي على لوحة المفاتيح لثوانٍ أحدّث نفسي «ماذا تريد أن تعرفَ يا آدم! تريدُني أن أخبرَك بأنّ النّوم جافاني بسببك!» زفرتُ بغضبٍ وأنا أرسل:

«بما أنّك أعدتَ لي الكاميرا ودفتر الملاحظات، فأنا أحاولُ كتابة مقالي الجديد، وإعداد صوره».

«إذًا، أنا أُعطّلكِ الآن، أليس كذلك؟»

لم أُرِدْ إنهاء الحديث معه؛ لذا أجبتُ سريعًا: «لا، أنا آخذ استراحة؛ لذلك تصفّحت الفيس بوك».

«وهذا من حُسن حظّي، كيف حال ورودك؟».

«بخير».

توقّفت قليلًا أنظر للشاشة، رأيتُه يكتب ويحذف، يتوقّف قليلًا، ثمّ يُعيد الكتابة، إذًا كلماتُه مُشتّتة مثلي تمامًا، ارتسمتِ ابتسامة مُشاكسة على شفتي وأنا أرسل «عدتَ تُراسلني، يبدو أنّك نسيت وعدك!»

ردّ بعدَ ثوانٍ: «بل أنتِ مَن نسيت باقي وعْدي، قلتُ إلّا إذا بادرتِ أنتِ»

«وهل بادرت!»

«بادر السّارق نيابةً عنكِ»

ضحكتُ وأنا أقرأ هذه الجُملة، حتّى علا صوتي، ففتحتْ بيلّا عينيها، تابعتني لبرهةٍ بعيونٍ ناعسة، ثمّ عادت لنومها، بعدها مرّ الوقت دون أن نشعر، وبدأت الحروف المشتّتة تستقيم، وتكوّنُ الجُملة تلو الأخرى، تحدثنا عن أمورٍ شتّى في حياتنا، حديثي معه أخرجني من حدود الزمان والمكان حتى انتبهتُ لأذان الفجر، بدوتُ كمَن استفاقَ من غيبوبته للتو، كان يكتب حينما أغلقت حسابي من دون تردّد، جلست على فراشي أحاول استيعابَ ما قمتُ بفعله، هل حقًّا ظللتُ أتحدّث إليه طوال الليل!

بدأ النّدمُ يتسلّل إلى قلبي فأسرعتُ للوضوء وفزعتُ إلى صلاتي، استيقظت بيلّا لصلاةِ الفجر، كانت ترمُقني بنظراتٍ أفهمُ معناها جيدًا، لكنّني تغافلت عنها، وهي تركتني لشعورِ النّدم الذي يجلد قلبي بسياطه، سمعت رنين هاتفي، علمت أنّه هو دونَ أنْ أنظرَ للشاشة، التقطته وكما توقّعت، ظللت أنظرُ لاسمه حتى توقّف الهاتف عن الرنين، فقمت بإغلاقه بأمرٍ من عقلي الذي قرّر إعلانَ الحرب على قلبي.

***

أحتاجُ إلى الهدوءِ جدًّا؛ ففي داخلي ضجيجُ مدينةٍ من الحنين.. وفي قلبي أشلاءُ حكايةٍ مُمزّقة.. وفي عيني ملحُ بكاءِ ألفِ ليلةٍ وليلة.

شهرزاد

كيڤوك

ابتلعتِ السّماءُ شمسَ العشيّة، وسلّمت الدّفّة للقمر، يُنيرُ السّماء بلا نجوم حوْله، الشّارع خالٍ من خطواتِ البشر عدا خطواتِه الثقيلة، يسيرُ بهدوءٍ مُمنّيًا نفسَه أنّ المسافة بينه وسريرِه قدْ تقلّصت، وأصبحَ على مقربةٍ من النّوم، وصل لبوّابة البيت فسمعَ صوتَ أغانٍ وضجيجٍ يعْلو كلّما اقترب من شقّته، زفَرَ بغضب؛ يبدو أنّ أحدَ الجيران يُودّعُ العزوبيّة، لا مشكلة إرهاق جسدِه سيُجبره على النوم، ولو ظلّ هذا الصوت لأيّام!

وصلَ للطابق المنشود، فاكتشف أنّ مصدرَ الصوت هو الشّقة المجاورة لشقّته، غضّن زوايا عينيه، وحاول تخمينَ أحد العروسين، كلّ مَن في هذا البيت أطفالٌ عداها! اتّسعت عيناه لهذا الخاطر، ثقلت خطواته أكثر حتى تسمّرت قدماه، انتبه الرجلُ الواقف أعْلى الدّرَج إليه، فهبط يستقبلُه مُبتسماً مُرحّبًا:

ـ يا مرحبًا بالباشمهندس عاصم، أين كنتَ يا رجل، اختفيتَ لأيّامٍ وأنا أنتظرك لأدعوك، اليوم عقَدْنا قرانَ ابنتي دعاء.

أسَرَت الصدمةُ ملامحَ وجهه، وتلعثمَ لسانُه أكثر من لعثمته، استجمعَ حروفَه، وسأل في خوفٍ من الإجابة:

ـ هل تـ تزوووجت الـ « الأسطى » صـ صـ صالح؟

_ أجلْ هو، رجلٌ محْترم، سيصونها ويتّقي الله فيها.

ردّ مُنفعلًا:

_ لـ لـكن د دعاء لم تتخرّج بعد، ثمّ إنّه لم يُـ يكمل تععليمه!

_ حتّى وإن لم يُكمل تعليمَه، هذا لا يُعيبه، رجلٌ لديه صنعة، ويستطيع فتحَ بيتٍ وتحمّل مسئولية، ماذا نريدُ بعد! أمّا عن دعاء فبماذا ستُفيدُها الشهادات! المرأة خُلقت لبيتِ زوجها إن أراد أن تُكمل فستُكملُ في بيته، الزّواج سترُ البنْت يا باشمهندس، وأنا لديّ من البنات خَمْس، اليوم اطمئنّ قلبي على الأولى، أخذَنا الكلامُ ونسيتُ عزيمتك، هيّا؛ أمّ دعاء جهّزت العَشاء.

حاولَ أن يبتسم حتّى ولو مجاملةً لكنّ الابتسامة أبتْ أن تُرتسم، فظهر وجهُه عابسًا وهو يقول:

_ شـ شـ شكرًا يا ححاج، و مُـ مبارك للـ آنسة ددعاء.

أصرّ الرجلُ وأقسمَ عليه، وهو يجرّه من يدِه إلى البيت، وفي لحظةٍ وجدَ نفسَه واقفًا في مواجهة عينيها، رغم «الماكياج» الذي غَيّر ملامحَ وجهها وقتلوا به آخرَ لمحةِ براءةٍ تسكنه إلّا أنّ الحزن جليٌّ في عينيها، لا يعلم هل عيناها تفْضَحان حزنَها أمام الجميع، أمْ هو فقط مَن يلاحظها لأنّه يعلم وجعَها!

ظلّت تُحدق في عينيه، وكأنّ شريطَ ذكرياتها يمرّ فيهما، ترى نفسَها تُتابعه مذْ بدأت مرحلة المراهقة، كانت مُعجبةً بشخصيته الرّزينة الهادئة الغامِضة حتى تحوّل هذا الإعجابُ إلى تعلّق، حاولت لفتَ انتباهه بأنوثتها التي بدأت تتفتّح، ولمّا باءت مُحاولاتُها بالفشل؛ قرّرت أن تلفتَ انتباهه بثقافتِها وروحها المرِحَة، وأيضًا لا فائدة، يُعاملها دائمًا على أنّها دعاء ابنة الجيران التي يُعِدّ الملَخّصات لتُعينَها على الدّراسة حتّى وصلت للجامعة، لم تعدْ تحتملُ تجاهلَه الدّائم لمُحاولاتها، قرّرت أن تتناسى وجودَه، ستُعاقبه بتجاهلِها له، نجحتْ ولم تكن تعلمُ أنّ هذا العقاب كان لجَلْد نفسِها وحدها!

وبالفعل، مع مرور الأيّام وكثرةِ سفَرِه واختفائه، أهملت سُقيا مشاعرها التي زرعتْها في قلبها؛ فذبُلَت، وفي أحدِ الأيّام.. اتّصلت بها إحْدى صديقاتها تنهرها على تنزيل صورتِها دونَ حجابٍ، و الرّسالة الإباحية التي أرسلتْها لها عبر الفيس بوك، نفتْ دعاء هذه الفعلةَ وأسرعت تفتحُ حسابَها، تفاجأتْ بصحّة كلام صديقتها، بالإضافة لصورٍ لها بشَعْرها كانت قدْ أرسلتها ذاتَ يوم في رسالةٍ خاصّة لابنة خالتِها التي تقطن في السّعودية، شعرتْ برعبٍ حقيقي وهي تنظرُ للشاشة، كلّما حذفت صورةً تنزلُ أخرى، كلّما اعتذرت في رسالةٍ لصديقاتها تُرسلُ أخرى، جلست تبكي بخوفٍ وقلّة حيلة، أرسلَ لها حسابٌ مجهول رسالةً يهدّدها فيها بأنه اخترقَ حسابها وسيفضحُها بصوَرها إن لم تُقابلْه، وليضغط عليها أكثر أرسلَ إليها بعض صورِها وصورٍ أخرى قام بالتّعديل عليها لتبدو فاضِحة، أخذتْ تلطمُ وجهَها، ثمّ أرسلت إليه

ترجوه أن يرحمَها وما زادته هذه المحايلات إلّا تجبُّرًا، سمعت صوتَ عاصم يُسلّم على أمّها، وكأنّ الله أرسلَه لها في هذه اللّحظة، وضعت حجابَها على رأسها وركضت خارج غرفتها، استقبلها بابتسامةٍ حنونة، سلّم عليها وناولها هديتَها التي اشتراها لها وإخوتها من بلاد النّوبة أثناء سفره، أخذتها منْه بيدٍ مُرتعشة ولسانٍ تقفُ عليه الحروف حائرةً، لاحظ حالتَها فغضّن زوايا عينيه وسألها «هـ هل أنتِ ببخيرٍ يا ددعاء؟» نفتْ إيماءةُ رأسها، ثمّ تلفّتت حولها وتابعت أمّها وهي تتّجه نحْو المطبخ، ما إنْ دخلت إليه حتى التفتَت دعاء باكيةً تحكي له ما حدثَ بصوتٍ خافت، طمأنَها أنّه سيحلّ الأمر، فقط تكتب له عنوان بريدِها والرّقم السّري، وتترك الباقي عليه، مرّت ساعةٌ ونصف، وبعدها انْتهى الكابوس، لقد أعادَ إليها كلّ شيءٍ وحذفَ صوَرَها ورسائلها، كما اخترقَ حساب مُخترقِها، كشف هويّته ووعَدَها أنه سيُلقّنه درسًا لنْ ينساه، شهامتُه أيقظت مشاعرَها الذابلة من جديدٍ، ودفعتها للتعلُّقِ به أكثر، إلى أن بدأ يُلاحظ أنّها لم تعدْ طفلة، كما لاحظ مُحاولاتها للفْت انتباهه، ولأنّ قلبه لن يكون لها، تجنّبها وتجنّب رؤيتها، طرقت بابَه ذات يوم، حينما رآها غضّ بصره وسألها عمَّا تريد، فاجأته بدفْعها له لداخل البيت، ثمّ أغلقت البابَ سريعًا وهي تقول:

_ آسفة يا أ.عاصم، مضطرّة لفعْل ذلك قبل أن يعود أبواي وأخواتي.

سألها بقلقٍ:

_ ه هل حـ حدثت ممششكلة أخرى؟

انهمرتْ دموعُها وترنّح جسدُها، كاد يسندُها للدّاخل لوْلا تذكُّره أنّه وحده بالبيت؛ لذا سحبَ أحدَ كراسي السّفرة، ووضعه جانبها قائلًا:

_ اجلسي يا ددعاء لـ لحظة ووس أعود.

غابَ في الدّاخل لثوانٍ، ثمّ عاد بكوبٍ من الماء وعلبةِ محارمٍ ورقية، تناولتْهما بيدين مُرتجِفتين، هدأتْ أنفاسها المُضطربة قليلًا فقالت:

_ أبي يُريد أن يُزوّجني «الأسطى صالح».

اتّسعت عيناه دهشةً، وهو يُتمتم «مـ مـــاذا ! بالطّبع لا يُـ يُناسبك صصالح»

تابعت ودموعُها تسيل:

_ والله أخبرتُ أبي مرارًا، ولا فائدة، الحلّ بات في يديك.

ردّ مُطمئنًا:

_ لـ لا تقلقي، سسأتـ ححدث إليه وأُأقنعه.

بدتْ مُتردّدة كثيرًا قبل أن تقول:

_ هل تتزوّجني يا عاصم؟

نظرَ لها مذهولًا، فتابعت:

_ أعلمُ أنّك لا تتخيّلني زوجةً لك، بل لا تراني من الأساس سوى الطفلةِ التي كنتَ تُساعدها في المذاكرة، لكنّني حقًّا أُ...

صمتتْ لبرهةٍ تستجمع شجاعتَها ثمّ قالت:

_ أنا أحبّك يا عاصم، وأعدُك أنّني سأجعلُك تُحبّني.

مازال ينظرُ إليها في ذهولٍ حتّى انتهت من حديثها، ونظرتْ إليه بترقُّب، فحاول أن يبتسم وهو يقول:

_ أأنا لا أستحقّ تلك المشاعر الجميلة من إنـ إنسسسانة جميلة مثلك يا ددعاء، أأنتِ ففتاة ننادرة تستحقّين الأففضل مـ من صصالح و و ممّني، أععدُك أنّني سسأتحددث ممع أأأبيكِ و سسأقنعه.

لم تردّ، لملمتِ الباقي من كرامتِها المُبعثرة ورحلت، رغم غضبِها منْه إلّا أنّها كانت واثقة من شهامته، وأنه لن يتركَها لهذا المصير، ظلّت تنتظر وتنتظر، لكنّ حساب «الفيس بوك» الخاصّ به أُغلقَ كهاتفه، ولا أثرَ له في شقّته، خذلانه لها قتَلَها، صارت جثّةً هامدة مُستسلمة لوالدها يدفنها في المكان الذي يُريده، حتّى وجدت نفسَها اليوم تُوقّع عقد زواجٍ من رجلٍ لا تشعرُ نحوه بشيء سوى النفور.

لم يتحمّل نظراتها، هربَ ببصره بعيدًا عن مرْمى عينيها، هو لم يُفكر في التّخلّي عنها أو خذلانها، في نفس اليوم الذي طلبت فيه مُساعدته اتّصل بوالدها، واتّفق معه أن يزورَه في المساء، قرّر أن يُحاول إقناعه، وإنْ لم ينجحْ سيتقدّم لخطبتها، حتّى وإن لم تسكن قلبه يكفيه أن يُخلّصها من هذا المصير، وحينما حلّ المَساء زاره رجالُ النّحراوي، واصطَحبوه إليه، احتجَزوه ولم

يرَ الشّارع لأيام، وحينما تركوه يعودُ لبيته استقبلته نظراتُ دعاء القاتلة، لم يعدْ يحتمل؛ لذاً اعتذرَ لوالدها، وقبل أن يرحل وجدَها تقف أمامَه بعينين تجمّدت فيهما الدّموع، نظرتْ إليه برهةً في صمتٍ ثمّ تمتَمَت «شكرًا لك»، جميعُهم يظنّون أنّها بالفعل تشكرُه، وحده يعلم أنّ كلمتها عتاب، لم يردّ، ولّاها ظهرَه، هربَ إلى شقته، وقبل أن يلتقط أنفاسه المُتلاحقة تفاجأ بجلوسِ رفعَتْ في صالة بيته، نظرَ إليه مصدومًا، فقال رفعَت:

_ أين كنتَ يا رجل؟ انتظرتُك كثيرًا.

وقفَ في منتصف الصّالة، سأل والشّررُ يتطاير من عينيه:

_ هـ هل كُ كنننت تعلم أأن كُ كل هذا سسسيحدث لي؟ لـ لقد حـ حبسسوني! وو كـادوا يقتلوني.

قامَ من مجلسه وربتَ على كتفِ عاصم، ثمّ دعاه للجلوس وهو يقول:

_ ألستَ بخيرٍ الآن يا عاصم؟ قلتُ لك مرارًا أنا أحسب كلّ خطوة قبل الإقدام عليها، كنت أعلمُ أنّه سيشُكّ في أمرك بعد تسريب معلوماتِ صفقته لديْنا، لهذا السّبب أرسلنا غيرَك للعمل مع النّحرواي لحسابنا.

ابتسمَ بسخريةٍ ثمّ علّق مُتهكّمًا:

_ أجل، ددائمًا لـ لديكم كـ كـبش فداء.

_ إمم.. لا تُسمّها كبشَ فداء، يمكنك القول بأنّ هناك بيادقَ يجب أن تُضحّي ليعيش مَن له دورٌ أهمّ.

ـ و و أنا سسئمت ككوني بييدقًا على ررقعة الشـ شطرنج، سسئمت انتظار قُـ قدوم بيدقٍ أهمّ فيحين ددور تضحيتي.

ـ لا تقلقْ يا عاصم، لن أُضحّي بك، حمل رجلي التّهمة عنك، وانتهى الأمر، لا تفكّر كثيرًا، وركّز في الخطوة القادمة.

شرحَ له مهمّته القادمة ثمّ رحل، على صوتِ الأغاني فشرع وحْشُ الخوف ينهشُ قلبه، وسياطُ ضميره تجلِدُ روحَه، طار النّوم من عينيه، دخل غرفة الماضي، تحدّث إلى صور أمّه ومازال الصوتُ يعْلو، وجيوشُ الصّداع تزحفُ لتأسر رأسَه، ضغط على صدْغَيه بأنامله، تذكّر شيئًا ما؛ فالتفتَ رأسَه نحو صندوقٍ قديمٍ في إحدى زوايا الغرفة، جلس على الأرض وفتحه فهبّت نسائمُ الذّكريات وحرّضت دموعَ عينيه، يشمّ رائحتها في كلّ خطاب كأنّها واقفة أمامه، رائحتُها كانت تشبه الياسمين ممْزوجةً برائحة الكراميل، ابتسمَ وأناملُه تعبث في أوراق حلوى الكراميل الفارغة التي يحتفظ بها في الصّندوق، تلتهمُ عينيه السّطور، وكأنّه يضمّها في حروفها، انقطع عن الكتابةِ لها منذ وقتٍ طويل، ربّما لهذا لم يعدْ قويًّا ليتحمّل ما يعيشه كلّ يوم؛ لذا قرّر أن يكتب لها حتّى وإنْ لم تصلها كلماتُه، يكفيه أن تُحيي الحروف طيفَها وتبثّ أملَ عودتها في قلبه، نهض من مجلسه، أحضر ورقةً وقلمًا ثمّ عادَ للجلوس جانبَ الصندوق، أوقف القلمَ على السطر الأول هُنيهة، ثمّ خطّ

«عزيزتي كيڤوك»

«رأيتُك لأوّل مرّةٍ في لحظةٍ فقدتُ فيها معاني الحياة، أعدتِ لي كلّ معانيها وألوانِها، فهل تقْبلين أن تشاركيني هذه الحياةَ التي تلوّنتْ بريشتِك؟ هل تقبَلين أنْ نُكمل الطّريق معًا حتّى نشيب معًا؟»

«لا أُنكرُ أنّ قلبي بالفعل تعلّق بآدم لكنّ تعلُّقي بالمبادئ التي ربّاني عليها أبواي كانت أكبر، خشْيتي من الله في قلبي جذورُها أعمقُ من هذه المشاعر، لذا انتصر عقلي في معركته، وظهر هذا الانتصار حينما أتاني آدم في الجامعة لمّا لم أردّ على رسائله ومكالماته، كنت جافّةً في نظراتي وحديثي معه، أخبرته أنّ كثرة اتصالاتِه وتصرّفاته تُزعجني، وطلبت منه أن يكُفّ عن ملاحقتي، كان ردّ فعله غريبًا!

أذعنَ لقراري ورحلَ دون أن يُجادلني، مرّ شهرٌ تلو الآخر، ولا أثرَ لآدم وكأنّه تعمّد أن يُعاقبني باختفائه، كنت كالمحمومة أبحثُ عنه حولي ربما أرهقه الشّوق، ودفعه لأنْ يعود لملاحقتي، صارتْ حياتي كئيبةً بلا طعم ولا لون؛ من الجامعة لعملي، ومن عملي للبيت.. تحديدًا لغرفتي التي أصبحت أمكثُ فيها معظم أوقاتي، قلّ حديثي مع مَن حولي حتى لاحظوا حالتي، وكثرت علاماتُ الاستفهام حوْلي، كنت أضعُ امتحاناتي ذريعةً، إلّا أنّ بيلّا فهمت ما يحدث لقلبي، فقالت لي دونَ مناسبة قبل أن نخلد للنوم:

«أتعلمين يا يقين، مِن الرّائع أن يترك أحدٌ شيئًا لله، لكنّ هذا التّرك إن لم يقترنْ بالرضا فلا فائدة منه بالسخط!».

لم أُعلّق، كنت أفهمُ جيدًا ما ترمي إليه، لم أكنْ ساخطةً، لكنّها حمّى الحنين مريرة، انشغلتُ بامتحاناتي، وفي اليوم الأخيرِ خرجت مع صديقاتي لاستقبال أجازةِ نهاية العام بالتنزّه، كنت سعيدةً في هذا اليوم، ضحكنا كثيرًا، وفي ختام اليوم قرّرنا أن نتناول الغداء، اخترنَ مقهاي المفضل، مذْ أن دخلنا وطيفُ آدم لا يُفارقني، كلهنّ تتحدّثن وأنا لا أسمع سوى صوتِه حينما كان يجلس أمامي ويحكي قصته، دفعني فضولي المزوج بالحنين إلى أنْ أقتفي أثره، التقطت هاتفي، فعلّقت صديقتي مازحةً وهي ترفع سبّابتها أمام وجهي «اتّفقنا أنّ مَن تمسّ هاتفها في جلستنا ستدفع؛ لذا ستدفعينَ خَمْس جنيهات يا يقين»، ضحكتُ وأنا أقول: «أمر طارئ، ولا تقلقي.. سأدفع عشْر جنيهات».

فتحتُ حسابي على الفيس بوك، لم أحتجْ كتابة اسمه في مربع البحث فحينما ضغطتُ عليه ظهر اسمُه أوّل المقترحات، فتحت صفحته الشخصية فخفقَ قلبي بعنفٍ، ثمّ بدأت عيناي في الاتّساع، خرجت منّي شهقة لم أشعرْ أنّها عالية لدرجة أن ينتبهنَ لي!

سألتني إحداهنّ عمّا حدث، أخبرتهنّ أنّني سأرحل لظرفٍ طارئ، حملت حقيبتي وركضت نحْو السيارة، جلست خلفَ المقْوَد، أقرأ المنشورات التي وضعَها أصدقاؤه على صفحته، وأنا أسمعُ صوت قلبي كقرْعِ طبول الحرب، أظنّها تلك الحرب الدائرة بين قلبي وعقلي، ها قد اشتعلت من جديد، أريد أن أعرفَ ما حدث له، لمَ الجميع يتمنّى له الشفاء؟

وبينما أتجوّل بين المنشورات، رأيت أحدَهم كتب في منشوره أنّه الآن برفقة آدم يزوره، يتمنّى له الشّفاء العاجل، ويضع موقعَ المُستشفى مُرفقًا بالمنشور، نظرتُ للتاريخ فرأيته البارحة، في تلك اللحظة قاوم قلبي حتى انتصرَ وفقَدَ عقلي السيطرةَ عليه، دونَ تفكيرٍ في أيّ شيءٍ آخر سوى رؤية آدم، ضغطت المكابح وقدتُ سيّارتي نحو المشفى، مرّت ساعتان وكنتُ واقفةً أمام غرفته، يدي على مقْبَض الباب حائرةً، سحبت نفَسًا عميقًا، ثمّ حسمتُ أمري وأملتُ المقْبَض حتّى انفتح الباب، دخلت بهدوءٍ، لمحت آدم على الفراش وإحدى قدميه مُعلّقة وملفوفة بالجبس، يدُه كذلك كانت ملفوفة به، على رأسِه ضمادَة، وهناك خدوشٌ وكدمات على وجهه، انفطر قلبي وأنا أتأمّله، لم يكنْ مُنتبهًا لدخولي، ربّما بسبب صوت التلفاز العالي أو لأنّني دخلت دون أن أُصدر صوتًا، كان يتناول طعامه، تُطعمه شابّةً ربما في نفس عمري أو أكبر، انتبهت إلى ملابسها، لم تكنْ ترتدي زيَّ التّمريض، تأمّلتها من أخمص قدمِها حتى أصغر خصلةٍ في شعرها الأصْفر الذي تركته مُنسدلًا على كتفيها، انعقدَ حاجباي وبدأت نيران الغيرة تشتعل، انتبهت تلك الفتاة لوجودي، فقالت بابتسامةٍ مجاملةٍ مُرحّبةً «أهلًا».

التفتَ آدم نحوي، وأظنّ الطّعام وقف في حلقِه من المفاجأة، فقد اختنقت أنفاسُه وأخذ يسعلُ بعنفٍ، فتركت الشّابة الطّعام من يدِها سريعًا وناولته كوبًا من الماء في نفس اللّحظة التي كُنت أركض فيها نحوه لأكون أوّل مَن يناوله هذا الكوب، نظرتُ لها وقد وصلت نيران الغيرة لعيني، تخيّلتني أغمسُ

وجهها في طبق الطعام، ثمّ ألفّ شعْرها حول كفّي، وأجرّها خارج الغرفة، استفقتُ من خيالاتي على إعلانِها الاسْتسلام، قمتُ بمطّ شفتيّ وأنا أسألُ نفسي هل رأتْ خيالاتي أم فضحني لساني وأعلن عمّا يدور في خلدي؟!

لا يهمّ، المهمّ أنّها قرّرت أن ترحل وحدها قائلةً وهي تخفض صوت التلفاز:

_ بما أنّ لديك زائر، فعليّ الذهاب الآن.

ثمّ تابعت وهي تضحك:

_ يكفيك ثلاثُ ساعات اليوم، سأمرّ عليك غدًا.

أظنّ في هذه اللحظة صعدتِ النيرانُ إلى رأسي، وخرج الدخان من أذنيّ، هل حقًّا جلستُ معه لثلاثِ ساعات! تبعتها عيناي وهي تخرج من الغرفة وترْميني بابتسامةِ مجاملةٍ أخيرة، التفتّ إليه والشّرر يتطاير من عيني، قلتُ بِحدّة:

_ كيف حالك؟

رفع حاجبيْه استنكارًا وقال:

_ هل مازلتِ على هذا الحال مذْ أن تركتك؟ وهل يا ترى أتيتِ لزيارة مريضٍ أم لتُكملي تعنيفي؟!

انتبهت لحدّتي فاعتذرت قائلةً:

_ آسفة، شيء ما عكّر مزاجي.

_ هل بسبب الامتحان؟

_ لا، الامتحان كان سهلًا.

_ الحمدُ لله، دعوت الله كثيرًا أن يكون الختام مسكًا.

كيف عرف أنّ امتحاني الأخير كان اليوم؟ غريبٌ سؤالي بالطّبع يجب أن يعرف إنه آدم، رغم ما هو فيه لم يتركْ متابعة أخباري! انتبهت لسؤاله:

_ وبما أنّ الامتحان كان سهلًا، هل ما عكّر مزاجك كان هنا؟

فهمتُ قصدَه فعاد الغضب يكسو ملامح وجهي، ضحك فقلت غاضبةً:

_ هل ترى مُهرجًا يا ترى؟!

_ أتعلمين.. لنْ أُغضبك مرّة أخرى، ليس خوفًا عليكِ، بل لأنّ الغضب يجعلكِ جذّابة أكثر، وهذا خطر على قلبي.

صرخت في وجهه:

_ آاادم، من فضلك، كفّ عن هذا الكلام.

ضحك، ثمّ قال:

_ حسنًا حسنًا، أنا آسف، وبالمناسبة، الفتاة التي كانت هنـ...

قاطعته ساخرةً:

_ أختك، أليس كذلك؟

_ لا.

تابعتُ سُخريتي:

_ إذًا، أختك في الرّضاعة، جملٌ محفوظة دائمًا في هذه المواقف.

قهقه، ثمّ قال:

_ أعطيني فرصةَ الحديث، إنّها ابنة خالتي، الشّخص الوحيد المتبقي لي من عائلة أمّي؛ لذا أنا بمثابة أخيها الأكبر، وبالمناسبة الضابط الذي أحضر حقيبتكِ المسروقة يكون زوجها، ولديهما صغيرٌ في الخامسة يحمل نفس اسمي.

بدأتْ نيراني تهدأ رويدًا رويدًا، إلّا أنّني حافظت على حدّتي:

_ لم أطلبْ منك أنْ تخبرني من هذه، لا يهمّني الأمر، ثمّ هل تجد حكايتك هذه مُبررًا قويًّا لأنْ تجلس معك لثلاث ساعاتٍ! ليس ذلك فقط بل وتُطعمك، ألا يوجد ممرّضين هنا؟ أظنّ هذا العمل من اختصاصهم، هل ترى هذا الأمر عاديًّا؟

رفع أحدَ حاجبيه وقال:

ـ مِن الواضح طبعًا أنّ هذا الأمر لا يهمّك، معكِ حقّ، لكنّني كنت جائعًا، ولا أستطيع رفعَ يديّ فكما ترين؛ يدٌ في الجبس وأخرى بها كدماتٌ مؤلمة، بادرت بإطعامي ولم أفكّر وقتها سوى في جوعي، لكن معكِ حقّ سأنتبه في المرّة القادمة.

ـ وما دخلي أنا إنِ انتبهت أو لا، أنتَ حرّ!

ضحكَ قائلًا:

ـ اثبتي على رأيٍ للحظةٍ يا يقين، دعيني أفهمكِ لمرّة واحدة.

سادَ الصّمت هنَيْهة، ثمّ سألت:

ـ ماذا حدث لك؟

ـ وأخييرًا، سألتِ السؤال الذي كان من المفترض أن تطرحيه قبل كلّ هذا!

كدتُ أضحك، ابتسمتُ وأنا أُخفي وجهي بكفيّ كي لا يراني، فأجاب:

ـ حادثة بسيطة.

قلتُ باستنكارٍ:

ـ كلّ هذا وبسيطة!

ـ رؤيتك جعلتْها بسيطة، أنا لا أشعرُ بذرّة ألمٍ في جسدي مذْ أن دخلتِ إلى الغرفة، حتى أنّني لا أصدّق أنّكِ هنا! هل حقًّا أنتِ هنا أم سأكتشف بعد ذلك أنّ هذا المشهد أحدُ أحلامي؟!

بدأتُ أرتبك من كلماتِه ونظراتِ عينيه التي تشعّ حبًّا لا يُخطئه قلب!

في هذه اللحظة، استعاد عقلي قوتَه، ونغّص على قلبي فرحتَه، وجدتني كعادتي أهرب، وقفتُ من مجلسي وقلت وأنا أوليه ظهْري:

ـ جيدٌ أنّك بخيرٍ، شفاك الله وعفا عنك.

لنْ أقول رحلت؛ بل هربت، عدتُ للبيت وقد تحسّنت حالتي كثيرًا، عدتُ لمرحي وشهيّتي للطّعام والإقبال على كلّ شيء، كنّا نتناول الغداء حينما مالتْ بيلّا على أذني، وهمست «لمعة عينيكِ اليوم غريبة، يبدو أنّ عقلك فقدَ السيطرةَ من جديد»، حدجتها بغضب ثمّ لم يصمدْ هذا الغضب انفرطت في الضّحك فضحكتْ وهي تقول «كنتُ أعلم ذلك، إذًا هل سأجدُ حكاية قبل النّوم الليلة؟»، لكزتها في كتفِها وقلت «كُلي في صمتٍ يا بيلّا؛ كي لا يقف الطّعام في حلقك».

وكما توقّعت لم تتركني في المساء حتى أخبرتُها بكلّ ما حدث، صمتت لثوانٍ، ثمّ قالت:

ـ حسنًا يا يقين، لن ألومكِ على شيء، ولن أُقرّ بأنكِ أخطأتِ، أريدكِ فقط أنْ تُخبريني الآن إلى أيّ مدى ستصل هذه الحكاية؟

_ لا أعلم، صدّقيني لو كنتُ أعلم لما عشت كلّ هذه الصراعات بيني ونفْسي، قلبي أصبحَ مُرهقًا يا بيلّا، فلا هو بالذي يستطيع عيشَ مشاعر الحبّ كاملةً ولا هو يهنأ بتحْصين قلبِه من هذه المشاعر!

أتعْلمين، أشعرُ أنّني واقفة في منتصف جسرٍ خشبيّ هشّ، يتساقط من خلْفي، إنْ ركضت وتقدّمت نحو الأمام هناك أسدٌ في النهاية ينتظر الْتِهامي، أخشى أنْ أظلّ واقفة في مكاني حتى أسقطَ في الهاوية دون أن أشعر، أنا خائفة من السّقوط مرّة أخرى يا بيلّا.

ضمّتني بحنانٍ، وقالت: «لا ترجعي ولا تتقدّمي ولا حتى تنتظري السقوط، انْظري نحو السّماء، واطلبي عونَ الله، وحده يصنع المعجزاتِ، ولا يردّ مَن لجأ إليه، ربّما تنبت أجنحتك وتُحلّقين في السماء!».

أغمضتُ عيني وتنهّد قلبي، وأنا أُتمتم «يا ربّ».

وبعد يومين، كنت أكتبُ في غرفتي مقالًا حينما وصلني اتّصال من آدم، أجبتُ بعد تردّدٍ، فقال دون مقدّماتٍ:

«انتظرتُ كثيرًا أن تسألي عن طريح فراشٍ مثلي، وبما أنكِ لم تفعلي كعادتِك؛ قرّرتُ أن أُذكّرك، هيّا اسألينِي كيف حالك؟».

ضحكتُ ثمّ قلت:

«لا، لن أسأل».

«حسنًا لأسأل أنا، كيف حالكِ وحياتك؟»

«بخيرٍ، الحمدُ لله، وأنت كيف حالك وحياتك؟»

«منذ قليلٍ قالت إنّها بخير»

سرتْ قشعريرةٌ أسفل عنقي، واحمرّت وجنتاي، لكنّني سيطرت على ارتباكي، وقلت مازحةً:

«أظنّني قرأت مثلَ هذا الحوار من قبْل، كتبه نزار قباني، الفرق كان إجابتها بأنّها رائعة، أليس كذلك!»

«آه منكِ يا يقين، دائمًا تُخربين عليّ اللحظات اللذيذة»

«وما اللذيذ في ذلك؟!»

«حمرةُ الخجل التي كست وجهَك»

«مَن قال إنّ ذلك حدث!»

«لم يقل أحدٌ، بل رأيت ذلك بعين إحساسي»

لم أردّ، ظللتُ صامتة لدقيقةٍ أُعيدُ انْتظام أنفاسي، أظنّه شعرَ بضرورة تغْيير دفّة الحديث، فقد قال:

«كيف حالُ أجازتك؟»

«لم أشعرْ ببدايتها بعد، منشغلة بمقالٍ هامّ»

«هل تحتاجين للمساعدة؟»

«لا، شكرًا لك»

عدْنا للصمتِ حتّى قال:

«رغم أنّني أحبّ دومًا الحديثَ معك، لكنّه وقت الغداء، لا أعلم ماذا حدث لي! ربّما في هذه الحادثة ثُقبت معدَتي؛ فكلّما أكلتُ أجوعُ أكثر!»

ضحكتُ ثمّ علّقت:

«بالهَناء والشفاء»

انتهتِ المكالمة، أغلق هو، وعدتُ أنا أسترجعُها، يتوهّج وجهي عند كلمات غزلِه مرّة أخرى، وأضحكُ عندما أسترجعُ تعليقاته الفُكاهية، وبينما كنت أضحكُ طرقتْ أمّي الباب، ثمّ دخلت باسمةَ الثّغر، وقالت: «هل لديكِ وقتٌ لنتحدّث، أم أعود في وقتٍ لاحق؟».

نهضت من خلف مكتبي قائلةً:

_ ماذا تقولين يا أمّي! كلّ أوقاتي إليكِ، تفضّلي حبيبتي.

جلَستْ على حافّة الفراش، فجلستُ جانبها، رفعْتُ خصلاتِ شعْري خلف أذني، وهي تسألُ بلطفٍ:

_ مَن يا تُرى جعل عينيكِ تضحك هكذا؟

قبّلت وجنتَها، وقلت:

_ بالطّبع رؤياكِ يا نورَ عيني.

ـ إمممم.. رؤيتي، أم مَن كنت تتحدّثين إليه منذ قليل!

اتّسعت عيناي وجفّ حلقي، سألتها بتوجّسٍ:

ـ مـ من!

تابعت:

ـ بالطّبع لم أكنْ أتلصّص عليكِ، كنت سأطرقُ الباب، فسمعتك دون قصدٍ؛ لذا آثرت أنْ أدخل بعدما تنتهين.

كنت أعلم أنّ هذه المواجهة ستحدثُ لا محالة؛ لذا استجمعت كلّ ما أملك من شجاعة، وقلت:

ـ إ إنّه آدم.

ضحكتْ أمّي فعقدتُ حاجبيّ، لم أكنْ أفهمُ سببَ ضحكتها، فقالت:

ـ أتعْلَمين يا يقين، هذا المشهدُ حدث من قبل، منذ زمن بعيد، حينما كنت تقريبًا في نفس عمرك، دخلت أمّي وأنا أتحدّث إلى أحدهم، لكنّ الفرق بيني وبينك أنّكِ شجاعة، أمّا أنا فلم أكنْ.

سألتُها بدهشة:

ـ حقًّا! هل فعلتِ ذلك؟

ـ وهل وُلدتُ كبيرة! بالطّبع مررتُ بهذه المراحل، وجرّبت كلّ تلك المشاعر، أنتِ أكثرُ مَن يذكّرني بشبابي.

ثمّ قرصتْ خدّي، وتابعت:

_ إلّا أنّني لم أكنْ عنيدةً لهذا الحدّ مثلك.

ضحكْت، فمسحتْ على شعْري بحنانٍ، وقالت:

_ لنْ يشعر بكِ أحدٌ مثلي يا يقين، ليس فقط لأنّكِ قطعةٌ منّي؛ بل لأنّني مَرَرْتُ أيضًا بتجاربك، وأعلمُ الآن ما هو شعورك، أعلم كلّ الصراعات التي تدور بين قلبك وعقلك.

وضعتْ يدَها على قلبي، وتابعت:

_ وأعلمُ أيضًا أنّ هذا بات مُرهِقًا.

جذبت رأسي نحو صدْرها، فسكنَ قلبي حينما سمع صوتَ نبضاتِها، طبعت قبْلةً على رأسي، ثمّ مرّرتْ يدَها عليها بحنانٍ، وهي تسترسل في الحديث قائلةً:

_ لا أحدٌ منّا يعلم الغيب، ولا أحدٌ يعلم أين النّصيب؟ ورغم ذلك نختار أن نُرهِق أرواحنا! هذا الصّراع تحديدًا سيحرمك لذّة بدايات الحبّ؛ لأنّكِ لن تستطيعي عيشَ مشاعر كاملة، سيظلّ مهْما فعلتِ حبًّا ناقصًا، وربما يكون ذلك عرضًا من أعراض أنفلونزا الحبّ المؤقتة.

رفعتُ رأسي أُتمتم باستنكارٍ «أنفلونزا الحبّ!»

فقالت:

ـ أجل، إنّه مرض يُصيب القلوب التي تشعر بالحرمان أو القلوب الموجوعة! يُخيّل إليهم أنّه حبّ، ولكنّه ليس كذلك.

ـ أنا لا يُخيّل لي يا أمّي، بل لنكون أدقّ في التّعبير، أنا لم أخترْ شيئًا.

ـ لكنْ على الأقلّ لديك عقلٌ يختار كبحَ جماحِك قبل الخوض في تجربة لا تحْسَبين خطواتك فيها، ولا تعلمين إلى أين ستدفعك؟!

ـ صدّقيني يا أمّي حاولتُ ومازلت أحاول، أبني الحصونَ حول قلبي وأظلّ صامدةً حتى يقتحمَ حياتي فتنهار حصوني.

ـ هل صرّح لكِ بمشاعره؟ أو حتّى طلب مقابلة أبيكِ؟

ـ لا.. لا، ليس بشكلٍ مباشر لكنّه دائمًا يُلمّح.

ـ إممم.. اسمعيني جيدًا يا يقين «إنّ الرجل لا يتمكّن من العشق كمدًا»، حينما تسكن قلبَه امرأةٌ يحرق أراضي اقتراب غيره منها، ويفعل المستحيل حتى تُصبح له علنًا.

ـ وماذا إن كان يختبرُ مشاعره أو مشاعرَها نحوه، وهل سيكون هناك توافقٌ بينهما، أم لا؛ قبل الخوض في علاقة رسمية؟!

ـ وماذا إنْ لم يجد توافقًا بعد أن تعلّق قلبُ الطرف الآخر به؟ وهل في المشاعر مجالٌ للتّجربة! حبيبتي، أولًا هكذا هي طبيعة الرجل لا يتمكّن

من كتْم هواه، ولو كانت كلّ الظّروف ضدّه، إنّ الرجل يا صغيرتي إذا أحبّ باح.. ثانيًا أنتِ عزيزةُ أهلك، ونورُ عيونهم، حياتك غاليةٌ عندهم، ولا بدّ أنْ تكون كذلك عند نفسك، بالقدْر الذي يجعلك لا تسمحين بأنْ تكوني فأر تجارب، لا تسمحين بالعبثِ بمشاعرك واختبارها، أنا لا أكره أنْ أرى قلبك ينبضُ بالحبّ، على العكس سأفرحُ لأنّها سنّة الحياة، لكن إنْ كانت بالشكل الصّحيح، وبالناموس الذي وضعه اللهُ لنا، قلبُكِ ومشاعرُكِ ليست للتجربة يا يقيني.

صمتتْ هُنيهة، ثمّ قالت:

ـ بالمناسبة، لن أمنعكِ من الحديث معه، ولا حتى مُلاقاته، لن أقول لكِ لا تفعلي ذلك، أتعرفين لمَ؟

ـ لِمَ؟

ـ لأنّني أثقُ في رجاحة عقلك وحكمتِك التي رغم كبَرِ سنّي أتعلّم منها في بعض الأحيان، كما أنّني أثقُ في تربية ابنتي، أثقُ يا نورَ عيني أنّكِ ستتصرّفين بالشّكل الصحيح الذي يليق بفتاةٍ يدعوها أبوها دومًا بـ «سموّ الأميرة»، فلا تحرمي رجلًا وضع فيكِ ثقته وآماله من لحظة فخرٍ واعتزاز يشعرُ بها وهو يضع يدَه في يدِ رجلٍ أتى طارقًا بابه طالبًا أميرته، لا تخذليه ولا تخذليني يا يقينَنا.

الْتمعَت عيناي، وارتسمتِ الابتسامة ملء شدقيَّ، قبّلت كلّ تجعيد مرسوم في كفّ أمّي، ووعدتها أن أتصرّف بالشّكل الذي يليق بتربيتها لي.

منذُ آخر حديثٍ بيني وأمّي، وأنا أجاهد هواي، لم أردّ على رسائل آدم، ولا اتّصاله حتى فهمَ وحده وكفّ عن اقتحام حياتي، عاد لاختفائه الذي سبق الحادث، لم يكنْ تأثيرُ اختفائه كبيرًا كالمرّة السابقة، ربّما لأنّني اقتنعت بحديث أمّي، لو أحبّني بصدقٍ لباحَ وما اختار الاختفاء.

وربّما أيضًا لأنّني انشغلتُ بعملي في الجريدة، وتحقيق حلمنا أنا وبيلّا حيثُ فاجأنا أبي بهدية لم نتوقّعها، كنّا نجلس منذ عامٍ معه، وسألنا عن مشروعنا الذي نطمح إلى تنفيذه بعد تخرُّجنا، فقلت:

ـ كان المشروعُ في البداية محلَّ زهورٍ صغيرٍ أمارس فيه عشقي لهذه المخْلوقات الرقيقة، ثمّ أتتني بيلّا ذاتَ يومٍ غاضبةً لأنّها لم تجد مكانًا تشعر فيه بالرّاحة أو الخصوصية هي ورفيقاتها؛ لذا اقترحت أن نُصمّم عالمًا خاصًّا بالفتيات.

ردّ أبي بإعجابٍ:

ـ رائع جدًّا لكنِ اشرحي لي كيف؟ أوْ ما هي خطتكما؟

أجابتْ بيلّا بحماسٍ:

ـ سنبحثُ عن أرضٍ بمساحةٍ كبيرةٍ في منطقةٍ حيويّة يسهل الوصول إليها بكلّ وسائل المواصلات، نُريد أنْ نبني عليها مكانًا سنُقسّمه إلى مطعمٍ،

وبه حديقةٌ صغيرة وألعابٌ للأطفال لَمن ترغب في اصْطحاب أطفالها، مقهًى هادئًا خاصًّا بالمذاكرة أو القراءة يحتوي على مكتبة ضخمة بها كتب في كلّ المجالات، ومناسبة لكلّ الأعمار، كلّ هذا بأسعارٍ مُخفضة وللفتيات فقط؛ لا لدخول الرجال، وبالطّبع القسمُ الأخير سيكونُ لزهور يقين، اخترنا أنْ نُسمّيه «كوكب الزُّهرة».

انتقلتْ عدوى الحماس من بيلّا لأبي فقال:

_ فكرةٌ رائعة وجديدة، والرّائع أكثر منها هو حماسُكما حافظًا عليه دائمًا.

سألَنا أبي عن تفاصيلِ المكان في مخيّلتنا، ولم نتخيّل وقتَها أنّه حفظ كلّ الإجابات ليعدّ لنا هديةَ نجاحنا، اصطحبنا في نزهةٍ، وهناك تفاجئنا بأن حلمَنا خرج من خيالنا لأرضِ الواقع، لقد نفّذ أبي كلّ تفصيلةٍ أخبرناه بها بأفضل ممّا كنّا نحلم، تأمّلنا المكان وعيونُنا تكادُ تخرُج من محجرها، عاجزتان عن النّطق من هوْل المفاجأة، ركضت نحو حضنِه أُتمتمُ بكلّ كلماتِ الامتنان التي أعرفُها، كنت أنثرُ القُبلات على يديْه، رأسِه وخدّيه بهستيريا فرحةٍ عارمة، وبيلّا خلفي تقفز فرحًا.

بحثْنا عن فتياتٍ للعمل، ثمّ حدّدنا موعد الافتتاح، صوّرنا إعلانًا دعائيًّا وطبعنا إعلانات ورقيّة قمْنا بتوزيعِها، كان الحماس يدفعنا نحو كلّ خطوةٍ دفعًا، حتى حانتِ اللّحظة المنْتظرة، وجاء يوم الافتتاح، حضرت الكثيرات مِن أقاربنا وصديقاتنا وأخْريات لا نعرفهنّ. كان اليوم رائعًا، أغلقنا المقهى

وكنّا نُغلق محلّ الزهور المُلحق به حينما شعرتُ فجأةً أنّنا انتقلنا للقطب الشّمالي، ارتجفَ جسدي وتوقّفتْ حواسّي للحظة عندما رأيتُه واقفًا أمام البابِ بحلّة زرقاء أنيقة، يحمل باقةَ زهور، أظنّها أعراض حمى الحنين الذي قمتُ بكبْتِه كلّ هذه المدّة!

ملأ الحنينُ عينيَّ لكنْ سرعان ما أسرَه العتاب، واحتلّ مكانه في عيني، اقتربَ باسمًا، حيّا بيلّا فلم تردّ تحيته فقط رمقتْه بنظراتٍ نارية ثمّ صوّبتها نحْوي، وبعدها تصنّعت الانْشغال بشيءٍ ما داخل المحل، تظنّني قويّة كفاية لتتركني أتصرّف وحْدي، ولا تعلم أنّني أُصبح هشّةً في حضرة عينيه!

ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ بالغة، حاولتُ أن أتحدّث، فلم يخرج صوتي؛ لذا تنحنَحْت قليلًا، ثمّ سألت بحدّة:

_ ماذا تريد؟

قابل حدّتي بابتسامتِه الصّافية، وقال:

_ لا يمكن أن يمرّ يومٌ مميزٌ كهذا دون أن أُهنّئكِ، مبارك يا يقين.

قالَها وهو يُناولُني باقةَ الزّهور، تأمّلت الباقة فعلمت رسالته التي اختار لغةَ الورد ليخبرَني بها، إلّا أنّني تصنّعت اللامبالاة، وقلت ساخرةً:

_ أيُعقلُ أن تبيع الماءَ في حارة السّاقين!

ضحكَ ثمّ قال:

_ لكنّ هذه الباقة مختلفة.

علّقت:

_ لدينا القرنفل والتيوليب أيضًا، أين الاختلاف فيها؟!

أجاب بثقةٍ:

_ الاختلافُ الأوّل أنّ الذي لديكِ مجرّد نوع وسط الكثيرين ينتظرُ مَن يشتريه، لكنّهما هنا في باقتي اخترتهما وحدهما خصيصًا لإيصال رسالة أظنّكِ أعلمُ بلغة الورود منّي، وتعلمين جيدًا ماذا يقول القرنفل والتيوليب، أمّا عن الاختلاف الثاني هو اللّمعة التي أضاءت عينكِ حينما وقعت على الباقة لتخبرني أنّ الرسالة وصلت رغمَ قناع اللامبالاة الذي ترتدينه!

وصل صبري لآخره في هذه اللّحظة، فسألت:

_ أخبرني يا آدم وبكلّ وضوحٍ، ماذا تريد منّي؟ ولِمَ تفعلُ كلّ هذا؟

تأمّلني ثوانٍ في صمتٍ، ثمّ قال:

_ وسطَ الباقة، تحديدًا في المنتصف، هناك زهرة تيوليب صناعية، ستجدينَ في قلبها ما أريدُه، وبكلّ وضوح!

نظرتُ للباقة فانتبهتُ بالفعل إلى وجودِ علبةٍ على شكل زهرة تيوليب، فتحتُها لأجد ورقةً مطويّة، رفعت الورقة فتفاجأت بخاتمٍ شديد الرقّة، نظرتُ له بعينين مُتّسعتين، ثمّ عدتُ للورقة، فتحتُها لأجد:

«رأيتكِ لأوّل مرّةٍ في لحظةٍ فقدت فيها معاني الحياة، أعدتِ لي كلّ معانيها وألوانها، فهل تقبلين أن تشاركيني هذه الحياة التي تلوّنت بريشتك؟ هل تقْبَلين أن نُكمل الطريق معًا حتى نشيب معًا؟ هل تقبلين الزّواج بي يا يقيني؟»

أعدتُ قراءة الكلماتِ بعينين جاحظتين، نظرتُ للخاتم ثمّ للورقة، ومنها إليه فرأيتُه مازال ينظرُ لي باسمًا، شعرت أنّ الأرض تميدُ بي، مال جَسَدي للوراء قليلًا، فوجدت ذراع بيلّا يسندني، التقطتُ الورقةَ من يدي، قرأتها مُتّسعة العينين، ثمّ نظرتْ إليه، وقالت بهدوءٍ:

_ رغمَ نواياك الطيّبة اخترت مفتاحًا خاطئًا لفتح الباب، دعني أعطيك المفتاح الصحيح، هل معك قلم؟

كان ينظر إليها ببلاهة، ناولها القلم من جيب سترته الداخلي، ومازال لا يفهمُ ماذا تريد، قلبت ظهرَ الورقة، كتبت عليها شيئًا ما، سحبت الباقة من يدي، وناولتها له، وهي تقول:

_ كتبت لك في ظهر الورقة رقمَ والدها، أعتقد هذا هو المفتاح الصحيح.

ناولتْه الورقة والباقة، أغلقتْ بابَ المحل جيدًا، وسحبتني من يدي نحو السّيارة، جلست خلف المقود، ثمّ قادتْ بنا إلى البيت.

الغريب أنّنا لم نتفوّه بكلمةٍ طوال الطريق! تركتني أواجه مشاعري المضطربة بيني وبين نفسي حتّى وصلنا أمام بوابة البيت، كسرت الصمتَ سائلةً:

_ ماذا سنفعل؟ هل سنخبر أمّي؟

أجبتُ بحيرةٍ:

_ لا أعلم يا بيلّا، قلبي يمور بشدّةٍ، يكاد يخرج من مكانه، فلا تسأليني أرجوكِ، أنا الآن عاجزةٌ عن التفكير في أيّ شيء، تصرّفي أنتِ.

قُلتُها وأنا أفتح بابَ السيارة، كنت أمضي في طريقي نحو البيت حينما جذبتْني بيلّا من يدي، وضمّت جسدي بحنانٍ بالغ، هي أكثر مَن يعلم الطريقة التي تُهدئ مور قلبي.

في هذا اليوم، أخبرتْ بيلّا أمّي بما حدث، وفي اليوم التالي اتصل آدم بأبي وحدّد معه موعدًا، أراد أن يزورنا وحدَه لولا أنْ أصرّ أبي على حضور والده، لا أعلم كيف أقنعُه رغم العلاقة المضطربة بينهما!

لكنّه بعد أسبوعٍ من مكالمته لأبي كان جالسًا في صالة بيتنا مع والده، لم أكنْ أصدّق أنّ آدم هنا أتى طالبًا يدي!

كانت بيلّا فرحةً مُتحمّسةً وكأنّها العروس، أعدّت كلّ شيءٍ لضيافتهم مع أمّي، ثمّ صعدتْ للغرفة فوجدتني أجلسُ وسط كومةٍ من الملابس، قالت بصدْمَة:

ـ يقين! النّاس في طريقهم إلى هنا ومازلتِ غارقةً في بحر الملابس!

قلتُ بغضبٍ:

ـ ماذا أفعل! لا أجد فستانًا لائقًا.

ـ كلّ ملابسكِ رائعةٌ وأنيقة، هيّا انهضي، دعيني أُساعدك.

اختارتْ فستانًا قطنيًّا أسود، رُسمت عليه ورودٌ بنفسجيّة، وخمارًا بنفس لونِ الورود، وقبل أن أعترضَ قالت بغضبٍ مُصطنَع مُحذرةً:

ـ إنْ لم ترتدي هذا سأذهبُ لأخبرهم بتأجيل الموعد حتى تجدينَ ملابسَ ملائمة.

قلتُ على الفور:

ـ لا.. لا، حسنًا، سأرتدي هذا الفستان.

ارْتديتُه وتأمّلتُ نفسي في المرآة، كانت الفرحةُ تُجملُني، ضمّتني بيلّا بعينين دامعتين، وقالت «كبرتْ صغيرتُنا» سمعنا جرس الباب فبدأت معدَتي في إصدار أصواتِها مُعلنةً عن اضطرابها، خرجت بيلّا مُسرعةً ثمّ عادت تقول بفرحٍ طفولي:

«وصل العريس، وصل العريس، أتودّين إلقاء نظرة؟»

قالتْها وهي تغمزُ لي بعينها، قلت «بالطبع لا» فسألت «متأكّدة؟» ضحكت فسحبتُ يدي، ووقفنا نختلسُ النّظرات من الطّابق العلوي،

مُختبئتين خلف إحدى الستائر، يبدو أنّ والده جاء مغصوبًا على أمره؛ فقد كان مُتجهّمًا، يجلسُ بغطرسة، لم أرتحْ لرؤيا هذا الرّجل، لكنّني تغافلت عن شعوري حينما لمحَت عيني وجهَ آدم، كان مُتأنقًا أكثر من أيّ مرّةٍ رأيته فيها، يحمل باقةَ زهورٍ تفاجأت حينما رأيتها، كانت بنفسجيّة كتلك المرسومة على فستاني، احمرّت وجنتاي خجلًا، سمعْنا بابَ غرفة أبي يُفتَح فركضنا نحو غرْفتي سريعًا نضحك بعفويةٍ، ثمّ عدْنا لمخبئنا بعْدما تأكّدنا أنّه في الطابق السّفلي، بعد ثوانٍ انضمّت أمّي إلينا، وهي تقرص وجنتي، وتقول «ذكّرتني بيوم أتى أبوكِ لخطْبتي كنّا أنا وخالتك ياسمين مُختبئتين هكذا»، ضحكتُ بخجلٍ، قبّلتُ كفّ أمّي ثمّ تابعنا أبي وهو يقتربُ منهما، فرْحتي لا يمكن وصفها في تلك اللحظة، وقفا ليُسلّما عليه، إلّا أنّه ظلّ واقفًا في مكانه، ينظرُ إليهما بلا حِراكٍ، ردّ فعله كان غريبًا، نظرنا لبعضنا أنا وبيلّا، ثمّ اتّسعت عينانا بصدمةٍ وخرجت منّا شهقة، ونحن نسمعه يقول لهما:

_ ليس لديّ فتيات للزّواج!.

***

في ليلةٍ شتويةٍ لم تشهدِ المنطقةُ مثلها من قبل، كانت الرّياحُ غاضبة، دفعت سحابةً فضربتْ أخرى، دارتْ بينهما معركةٌ حامية، ودوّت زمجرتُهما برعدٍ يُلقي في القلوب الرّعب، حمي الوطيسُ بينهما فانطلق البرقُ يشقّ السّماء ويُبدّد عتمة الليل، بدتِ السماءُ بيضاء كأنّها في وضح النهار!

لم تُبالِ بهذه الأجواء المُرعبة، بجسدٍ مُثقلٍ بالهُموم صعدت لسطح البيت، تأمّلت الفراغ الذي يحتلّ مكانها بعيونٍ غائرةٍ ذابلة، مرّت سنوات ولم تجرؤ أن تجلس في نفس المكانِ وحدها.

نظرتْ لعلبة الكراميل الفارغة في يدها، أصبحتْ في السادسة عشر، وصوتُه لم يخرج بعدُ من أذنيها «هل تعلمين أنّكِ الكراميل الوحيد الذي لا يُسكّن ألمي فقط؛ بل يمحوه؟» ظهر شبحُ ابتسامةٍ ساخرةٍ على شفتيها الباهتَتَين «كلّما أكلتِ الكراميل تذكّريني، واكْتبي لي خطاباتٍ، وأنا سأرسل لكِ دائمًا»، تذكّرت كؤوس الانتظار المريرة التي تجرّعتها، كلّ الخطابات التي كتبتها، ولأنّها لا تعرف أين أراضيه.. تُدخلها إلى بيته من أسفل عقب الباب، تقلّصت ملامحها وقبضت على القلادة التي تُحيط جيدَها، وضعت فيها خاتمَه، قبضت على الخاتم بعنفٍ، وذاكرة أذنها تستعيدُ وعده، اعتصرت قبضتَها أكثر وهي تسمع «وعدٌ مهْما حدث لن أخلفَه يا كيڤوك...»

غلتْ مراجلُ غضبها، وانتفختْ أوداجُها، فصرخت «كاااااذب»

نظرتْ نحو مكانها فالتَمَع التحدّي الغاضب في عينيها، اقتربت منه، دفعتها الرّياحُ للخلف لكنّ غضبها كان أقوى، تحدّت الرياح ونفسها، وقفت فيه رغم أنف خوفها من شبح الفراغ الذي يأسره، وفجأةً ضرب البرق دلوًا معدنيًّا قديماً جانبها، أصدر صوتًا مُفزعًا، ثمّ انطلقت صاعقةُ البرق منه تضربُ جسدَها، فخرّت على الأرض جثةً هامدة.

قدْ تمضي لتدفنَ أحدَهم، فتنْسَى وتدفن روحَك معَه، وتعود أنتَ ببقايا جسدٍ أنْهكَه الفراق.

ندا سليمان– أمنيجيا

_ ليس لديّ فتيات للزّواج!

سادَ الصّمت بعد جُملته، حتّى استفاقَ آدم من صدمته، وسأل:

_ لم أفهمْ قصدَك! ماذا حدث يا عمّي؟!!

سكتَ أبي برهةً قبل أن يقول:

_ كنتُ مُصرًّا أنْ يأتي معك والدكُ لأتأكّد أنّه ليس تشابه أسماء، كما قلت لكم ليس لديّ فتياتٌ للزّواج.

قالها ثمّ ولّاهما ظهرَه وصعدَ للطابق العلوي، لم نختبئ أنا وبيلّا هذه المرّة، كنّا ننظر إليه واجمتيْن، تحاشى النّظر إلينا ودخل إلى غرفته، فتبعته أمّي دونَ أن تنبس ببنت شفة، لم تجدْ بيلّا ما تقوله لي، حاولت طمأنتي قائلةً «لا تقلقي، سننتظرُ حتّى يهدأ ونفهمَ ما الأمر، وربما تخرج أمّي الآن وتُفسّر لنا ما حدث» لم أردّ، فقط نظرتُ لأسفل فوجدتُ آدم يقف وحده في صالة بيتنا، تهدل كتفاه بانهزام، ينظرُ للفراغ الذي كان يحتلّه أبي، وكأن روحي نادته فنظرَ نحوي، كنت أعتذرُ له بعيني وهو يُبادل اعتذراي بنظراتٍ تيهٍ، وضع باقةَ الزهور على الكرسي الذي كان يجلس عليه، شيّعني بنظرةٍ أخيرةٍ ثمّ رحل، هبطت لأسفل، التقطت الباقةَ وصعدت لغرفتي، ضممْتها وجلستُ على الفراش أنظرُ للفراغ، وبيلّا جانبي تُحاول انتقاءَ كلماتها لتُهدّئ

من روْعي، تتحدّث وتتحدّث وأنا كأنّ على رأسي الطّير حتى وقفت فجأةً، وضعت الباقةَ على الفراش، وذهبت إلى غرفة أبي، كنتُ سأطرق البابَ لوْلا أنْ سمعت بُكاءه، انتفض قلبي، هذه المرّة الأولى التي أسمعُ فيها بكاءَ أبي، زادتْ حيرتي، عدتُ لغرفتي فوجدت بيلّا تنظر لي بترقّب، فلم أتفوّه بكلمة، ارتديتُ منامتي وتمدّدت في فراشي، فدنتْ منّي، ظلّت تمسح على شعري وتتلو آيات من القرآن بصوتها العذْب، حتى قطع تلاوتها إشعارُ رسالةٍ في هاتفي، كنتُ أعلم أنّها من آدم، لم أجرؤ على مسّ الهاتف، طلبتُ منها أن تضعَه على الصّامت، وتُكمل التّلاوة ففعلت، كانت الأفكارُ تعصف رأسي إلّا أنّني استسلمتُ لتلاوتها ورُحتُ في سباتٍ عميق.

وفي الصّباح التالي، استيقظتُ لأجدَ ورقة من بيلّا جانبَ وسادتي تخبرني فيها أنّها ذهبت إلى المقهى، وتنتظر أن أتبْعها لأفتحَ محلّ الزهور، نظرت للسّاعة في هاتفي وجدتُها الحادية عشرة صباحًا، انتبهت لوجود أربع رسائلَ من آدم، زفرتُ بغضب، تركتُ الهاتف وذهبتُ لغرفة أبي، طرقت البابَ ثمّ دخلت فلم أجدْ أحدًا، هبطتُ لأسفل فوجدت أمّي جالسة في صالة البيت، وكأنّها كانت تنتظرني، ابتسمتْ عندما رأتني وقالت:

ـ أنتظرك منذ أنِ استيقظت، صباح الخير.

ـ صباحُ الخير أمّي، أين أبي؟

ـ ذهب إلى عمله.

_ حسنًا، سأُبدّلُ ملابسي وأذهب إليه.

أوقفتني قبلَ أن أعود لغرفتي بجُملتها:

_ لكنّ التفسيرَ الذي تنتظرينه ستجدينه عندي.

التفتُّ إليها وقلت:

_ حسنًا، تفضّلي أسمعك.

طلبتْ منّي أن أجلس جانبَها فجلست، تنهّدت ثمّ قالت:

_ الأمرُ وباختصارٍ أنّ والدك يعرف أباه، وأنّه رجلٌ لا يليقُ بأن تكوني كَنّته.

_ أعرفُ ذلك جيدًا يا أمّي، لكنّ آدم ليس مثله، حتّى أنّ علاقتهما متوترة، وآدم يعيش وحدَه بعيدًا عنه.

_ وهذا سببٌ آخر يدفع والدكِ للرفض.

_ هل هذه كلّ الأسباب أم أنّ هناك سببًا لم تخبريني به؟ وأظنّ هو نفس السبب وراء بكاء أبي البارحة!

اضطربتْ ملامح أمّي، حاولت ترتيبَ حروفها، وقبل أن تتحدّث رنّ جرس الباب، فتحت فوجدتُها خالتي ياسمين، رحّبنا بها ثمّ أخبرتني أمّي أنْ نكمل الحديث في وقتٍ لاحق؛ لذا تركتهما وذهبت لغرفتي، بدلت ملابسي ثمّ ذهبت لمحلّ الزهور، جلست فيه أُقابل الزّبائن بابتسامةٍ مُصطنعة، ومازال

التّفكير يُرهقُ رأسي، فتحتُ رسائل آدم كلّها يسألُ فيها عن السبب، لم أردّ عليه لأنّني لا أجد إجابةً لنفسي على نفس الأسئلة!

جلستُ في المحلّ ساعتين ثمّ نفدَ صبْري، التقطتُ حقيبتي، أغلقتُ المحل ثمّ قدتُ سيارتي إلى عملِ أبي، دخلتُ إلى مكتبه، مازال منذُ البارحة يتحاشى النّظر في عيني، جلست أمامه، سادَ الصمت بضع ثوانٍ، ثمّ قلت:

ـ ربّيتني على ألّا أترك حقّي أبدًا، تعبتُ من أفكار رأسي، والأسئلة التي تدورُ فيها، ألا تظنّ أنّ من حقّي أن أعرف السببَ الحقيقي وراء رفضك لآدم؟

تأمّلني للحظةٍ ثمّ قال:

ـ أنا جائع، هل نذهبُ لتناول الغداء؟

وافقتُ بإيماءة رأسي، تأبّط ذراعي وذهبْنا إلى أحد المطاعم، طلبنا الطعام وجلسْنا ننتظره في صمتٍ، نفدَ صبْري فنظرت لأبي وهممْتُ بطرح سؤالي مرّةً أخرى لوْلا أن سبقني قائلًا:

ـ تمّ القبض عليّ للمرّة الأولى قبل مولدك، وهذه نقطةُ التحوّل في حياتي، وقتها كان تحولًا للأسوأ، خمْسُ سنواتٍ في المعتقل حوّلتني لرجلٍ آخر، رأيتُ فيهم صنوفَ العذاب التي يمكنها أن تخطرَ على بالك، والتي لا يمكن لعقلِك أو قلبك الصّغير الأخضر استيعابها.

رفع كُمّ قميصه فشهقتُ فزعًا، ابتسم بمرارةٍ وقال:

_ أتذْكرين حينما كنتِ غاضبةً لأنّني لا أرتدي القميص الذي أهديتني إيّاه؟ لأنّني مذْ خرجت لم أرتدِ سوى قمصانٍ بأكمام طويلة، كي لا يرى أحدٌ تشوّهات جسدي، ولم يرَها سوى أمّك، انتابُكِ الفزع حينما رأيتُ حرقًا صغيرًا في ساعدي، رغم أنّ هذا الحرق هو أبسطَ علامةٍ في جسدي..

ظلّ أبي يقصّ لي بعضًا من الانتهاكاتِ التي تعرّض لها، كنت أسمعه والألمُ ينخرُ في قلبي، تعرّى أمامي وجعُ أبي الذي أخفاه عنّا كلّ هذه السّنوات، كانت ملامحُه تتقلّص وهو يحكي وكأنّ مع كلّ كلمةٍ يتفتّح جرحٌ من ماضيه! امتلأتْ عينه بالدّموع وأنا دموعي كانت تسيلُ بغزارة حتى بدأتْ شهقاتي تعلو، لم أتحمّل سماع كلمةٍ أخرى، نهضتُ من مجلسي وضممْتُ رأسَه إلى صدري وأنا أبكي بحرقة، كنت قد نسيت كلّ أسئلتي حتّى أنّني نسيت آدم إلى أنّ قال أبي بصوتٍ مجروح:

_ الرّجلُ الذي فعل بي كلّ هذا هو أبوه، أنتِ قطعة منّي يا يقيني، أشعرُ بك، وأعلمُ أنّ قلبكِ يحملُ مشاعرَ لآدم، لكنّني لن أتحمّل أن يحمل أطفالك اسم محمود الحفناوي، لن أتحمّل أن تكوني كَنّته، صُدمتُ حينما علمت اسم آدم، دعوتُ الله كثيرًا أنْ يكون محْض تشابه أسماءٍ؛ لذا كنت مُصرًّا على أنْ يأتي معه والده، رأيتُه لثوانٍ فمرّ شريط الماضي أمام عيني، تفتّقت جروحي وأنا أقفُ أمامه للحظةٍ يا يقيني، هل تظنّينني أستطيع تحمّل رؤيته في الباقي مِن عمري؟ أتظنّين أنّني سأتحمّل أن يجتمع نسبُنا!

شددتُ ضمّتي على رأسه، حاولتُ استجماع حروفي من بين شهقاتي، وقلت:

_ لستُ مضطرًّا لأنْ تتحمّل يا أبي، لن أعيشَ لحظة سعادةٍ على حساب وجعِك، أنا لا أريد آدم، حقًّا لا أريده، أتمنّى لو كنتُ أعلم بكلّ هذا لما سعيتُ للمواجهة بينك وبين هذا الرجل، سامحني يا أبي.

وقفَ مِن مجلسه وضمّني إلى حضنه بحنان، قبّل رأسي، وظلّ يربتُ على ظهْري، أردتُ لو أُقبّل كلّ جرح في جسده، أنْ أخترق جسدَه وصولًا إلى قلبِه أنزع منه كلّ جرح مازال محفورًا فيه، في هذه اللّحظة قرّرت قراري الأخير، سأطردُ آدم من قلبي كما سمحتُ له بسكناه».

توقّفت عن الكتابة، ارتشفتُ بعضًا من كأس الماء الموضوع جانبها، أعادتْ رأس القلم للورقة مرّةً أخرى، لكنّها لا تقوى على تحريكه، يبدو أنّ مفعول أقراص الشّجاعة التي ابتلعتها؛ انتهى!

تحتاجُ شجاعةً أكبر لتُسطّر الوجع الذي دفعَها من البداية لهذه الحالة، لكنّها قرّرت مذْ بدأت الكتابة أن تتحدّى الاكتئاب والألم الذي ظلّت غارقة فيه لسنوات؛ لذا التَمع التحدّي في عينيها، سحبتْ نفسًا عميقًا، ثمّ زفرته بهدوء، فتحتْ صفحة جديدة بيضاء، أوقفتِ القلمَ على أوّل السّطر، وكتبتْ:

«حاول آدم مِرارًا أن يُقنع أبي إلى أن ملّ وأخبره أنه سيوافق في حال موافقتي، سلّمني أبي الدّفّة لأنّه يعلم جيدًا أنّني لن أفعل سوى ما يريده، جاءني آدم في محلّ الزهور، كنت حادّةً في الحديث معه، تصنّعت الانشغالَ بعملي، فتحت الحاسوب وتركتُه يتحدّث بلا اهتمام، أثارت تصرّفاتي حنقَه، فأغلق شاشةَ حاسوبي، وقال بغضب:

_ مِن فضلك، لا تتعاملي معي بهذه الطّريقة، أنا أتحدّث إليكِ.

_ ماذا تريدُ يا آدم؟

_ والدكِ وافق على زواجنا.

سألتُ بدهشةٍ:

_ ماذا! كيف؟!

_ أخبرني أنّه سيوافق إذا وافقتِ أنتِ.

_ ومَن أخبرك أنّني سأُوافق؟!

عقدَ حاجبيه، ثمّ سأل بريبةٍ:

_ ألستِ موافقة؟

_ بالطّبع لا.

_ حسنًا، من حقّي أن أعرف السّبب الذي غيّر رأيك؟

ـ يُمكنُني أن أتحمّل كسرةَ القلب، لكنْ ما لن أتحمّله هي كسرة نفْس أبي أو المساس بكرامتِه، كان من المُمكن أن أتغاضى عن كوْن والدك شخص فاسد ظالم لأنّك مختلفٌ عنه، لكنْ لا يُمكنني التّغاضي عن كونه ظلم أبي وعذّبه نفسيًّا وجسديًّا في المعتقل، والآن تريدُ منّي أن أشاركه في استكمال تعْذيب أبي، أليس كذلك؟!

ـ وما ذنبي يا يقين؟

ـ ذنبُك أنّك ابنه، أنا وأنت نسيرُ في طريقين متوازييْن، من المُحال مهْما حدثَ أن تتقاطع طرقنا، ونلتقي، فلا تعذّب نفسك وتعذّبني معك، من فضلك لا أريدُ رؤيتَك مرّةً أخرى، ولا تُحاول ثانيةً إقناع أبي لأنّني لن أُغيّر رأيي مهْما حدث.

أنهيتُ جُملتي، ثمّ رفعتُ شاشة الحاسوب، وظللتُ أعبثُ بأزراره، تأملني آدمُ لبرهةٍ ثمّ رحل وهو يُشيّعني بنظرةِ انْكسار، علقتْ دمعةٌ في أهدابي فأسرعت والتقطتها قبل أن تسقط، هذه المرّة لن أستسلم للضعف.

لنْ أنكر أنّني رغم محاولاتي تصنعُ السّعادة كان هناك حزنٌ ينغّص على قلبي أيّ فرحةٍ تُحاول التسلّل إليه.

إلى أنْ رجّ أرجاءَ مصر مقتلُ «خالد سعيد»، قضيّته أيقظتِ الثّورية التي دفنتها داخلي منذ أن قُبض عليَّ في آخرِ مظاهرة، تولّيت متابعة قضيته في الجريدة، بدأتُ أبحث عن كلّ ما يخصّها، حتّى أنني استأذنت أبي في السفر

إلى الإسكندرية ومقابلة أهلِه وشهود العيان، ولخوْفه عليّ وافق شريطةَ أن يُسافرَ معي، شغلني عملي عن التّفكير في أيّ حزنٍ؛ بل شغلني عن التفكير في قلبي وما يشعر به.

توالتِ الأحداث، وكان مقتلُ خالد هو الشّظْية التي أشعلت فتيلَ الغضب في الشّارع المصري، ورغمَ أنّها أصبحت قضية هامّةً يتحدّث عنها كلّ صغيرٍ وكبير إلّا أنّ رئيس التحرير أصدر أمرًا بوقْف النشر في قضيتِه كغيره من وسائل الإعلام الأخرى؛ لذا قرّر الشّباب أن يصنعوا إعلامًا خاصًّا بهم عبْر مواقع التواصل الاجْتماعي، انتشرتْ مقاطع وصور لانتهاكاتِ بعض رجال الشّرطة ورؤوس الفسادِ في مصر على «الفيس بوك» و«تويتر»، اشتعلَ الفتيل أكثر حتّى قامت الثّورة في تونس، انتقلتْ منها عدوى الحماسِ الثّوري إلى الشّباب المصري، فبدؤوا يدعون للتّظاهر على مواقع التّواصل الاجتماعي، واختاروا يومَ الخامس والعشرين من يناير، قرّروا أن يُنغّصوا عليهم عيشهم في يومِهم.

***

يناير ٢٠١١

انفجرتِ القنبلة، وخرج الشّباب في محافظات مصر يطالبون بكرامتهم المُهْدرة في وطنهم، كان يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير هو الشّرارةَ الأولى التي أشعلتْ لهيبَ الثورة المصرية، ظننتُ أنّها ستكون مظاهرةً عادية احتشد فيها عددٌ لا بأس به من الثوّار، سنهتف لبضع ساعات ثمّ سيُفرقوننا بعصيّهم والاعْتقالات كما اعتدت، ولم أكن أتخيّل أنّنا أمامَ ثورةٍ حقيقيّة ستقلب كلّ المقاييس، كانت الأعداد تتزايدُ كلّ يوم حتى جمعة الغضب في الثّامن والعشرين من يناير، هذا اليوم مميّز؛ لأنّ الأيّام الأولى من الثّورة ضمّت نخبة من المثقفين، طلبة الجامعات، الحركات المعارضة وشباب الإنترنت، أمّا في هذا اليوم خرجت القوى الوطنية الأخرى، اجتمعت كلّ فئات الشعب صغيرها وكبيرها تهتف بأبسط حقوقها «عيش حرية عدالة اجتماعية»، «الشعب يريد إسقاط النظام»، لم أكنْ لأترك حدثًا عظيمًا كهذا دونَ المشاركة، حتّى أنّ بيلّا التي لا تحبّ المظاهرات ولا السياسة قرّرت أن تنزلَ لميدان التحرير معي، كنّا خائفتين من ردّ فعل أبي، وفاجأنا باستعداده للنّزول معنا، ليس ذلك فقط؛ بل أخي الأكبر حمزة شاركَ في المستشفى الميداني لعلاج المُصابين، كانت فترةً كالحلم مهْما مرّ الزّمن ذكرياتُها محفورة في القلب قبل الذاكرة، حتى جاء اليوم المشهود في الثّاني من فبراير، كـ«

توقّف قلمُها عن الكتابة، ارتجفتْ يدُها وفزع قلبُها، خرجت شياطينُ الوجع مِن قُمقُمها واحتلّت كلّ خليةٍ في جسدها، وقفت من مجلسها واقتربتْ من النّافذة، نظرت نحْو السّماء وظلّت تُناجي ربّها، في كلّ مرّةٍ تُحاول فيها تسطير وجعِها تقف عندَ هذا الفصل، لكنّها هذه المرّة عزمت على التخلص من الأسْر، ستتحرّر اليومَ من الاكتئاب، ستقتلُ أشباح الماضي بقلمها، تمتمَتْ «نعم، سأواجه هذه المرّة، لن أهربَ مهْما كلّفني الأمر»، عادت لمكتبها، أمسكت القلم، فتحت صفحةً جديدة، وبدأت تكتب:

«في صباح الثّاني من فبراير لعام ألفين وأحدَ عشر، كنت جالسةً جانب بيلّا وهي تتلو آيات القرآن بصوتِها العذب، كانت تقرأ من سورة «التوبة»، تحديدًا هذه الآية:

«إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»

صدّقت، ثمّ نظرت لي بعينين مُبتسمتين، وقالت:

ـ أشعرُ في كلّ حرفٍ أقرؤه في ورْدي اليومي أنّ الله يُرسل لي الرسائل، وانظري وِرْد اليوم، إنّ الله معنا، وسينصرنا يا يقين.

ابتسمْت وربتّ على كتفِها مُتمتةً «سينصرنا يا بيلّا»، فتركتْ مصحفَها وضمّتني بقوّةٍ، اتّسعت ابتسامتي أكثرَ حتّى تلاشت حينما رأيت آدم يقف أمامَنا، كان يلهثُ قائلًا:

_ بحثتُ عنكِ كثيرًا يا يقين.

كنتُ في الفترة الماضية بعد ما رأيتُه من أساليب رجال الشرطة في فضّ اعتصاماتنا كارهة لكلّ مَن يعمل في هذا المجال، حتّى وإن لم يكن فاسدًا مثلَ الكثيرين! ولهذا صببتُ جامَ غضبي منهم جميعًا على آدم، وقفت أصرخُ في وجهه:

_ ماذا تريدُ يا حضرة الضابط؟ أتيتَ لتعتقلنا؟! وأين زيّك الرّسمي؟ هل حينما تخلعُه ستكون مختلفًا عنهم! أم لحظة، هل أتيت لتندسّ بين صفوف المتَظاهرين؟!

_ اسْمعيني يا يقين، لا وقتَ لديّ، مِن فضلك خُذي سلسبيل، وعودي إلى البيت.

_ حقًّا! هل هناك خطرٌ سيحدث يا تُرى اليوم؟ وهل هناك أكثر ممّا عشناه الأيّام الماضية؟ حسنًا موافقة.. سأرحل، لكن عليك أولًا أن تُقنع كلّ هؤلاء بالرّحيل.

تجاهلته، وأمسكت يدَ بيلّا قائلةً:

_ هيّا بنا يا بيلّا، بدأت المسيرة.

جميعُنا كنّا نهتف بحرقةٍ، اشتدّ الزحام أكثرَ فوجئت بآدم يقفُ على مقربةٍ منّا، حدجته بغضب، ثمّ عدتُ لهتافي، حتى حدثَ هرجٌ ومرج، اختلّت الصفوف، ظننتُ في البداية أنّ قوّات الشرطة تحاول تفريقَنا، إلّا أنّني فوجئت بأحصنةٍ وجِمالٍ وبغالٍ عليها رجالٌ يحملون سيوفًا، وعصيًّا وسُوطًا ينهالون بها على المتَظاهرين، وهناك آخرون يهجمون علينا بالحِجارة، قنابل المولوتوف والرّصاص الحي، أوّل شيءٍ فعلته بتلقائيةٍ رحت أشدّ قبضتي على يدِ بيلّا، وتفاجأت بخلوّ كفّي، نظرت خلفي فلم أجدْها، تاهتْ منّي وسطَ الزّحام، عيني تبحثُ عنها بهلعٍ حتّى فوجئتُ بآدم يجذبني بعيدًا عن حصانٍ كادَ يدهسني، كان يحميني بجسده مُحاولًا الخروجَ بي من وسط الزحام، وفجأةً أصابته طلقةٌ فخرّ على الأرض، وداستْ على جسده أقدامُ الفارّين من الموت، لم أستطعْ تركه، حال الناس بيني وبينه، لكنّي استطعتُ الوصول إليه بشقّ الأنفس، حاولت رفعَ جسده عنِ الأرض فلم أستطعْ، وقف شهمٌ رآني فساعدني ورفعَه، نادى آخر وحَملاه إلى المستشفى الميداني، وأنا أركض خلفهما، وأتمتم «يا ربّ سلّم»، وصلنا إلى المستشفى، بحثتُ عن أخي ليُسعفه فلم أجدْه، تركه الشابّان على أحدِ المراتب الموضوعة على الأرض ورحلوا، فأتت طبيبةٌ وبدأت تُسعفه، كنتُ أنظر إليه بلوْعةٍ أحثّ الطبيبة على إنقاذه، لمحت أخي منكبًّا على أحد المُصابين يُحاول إنقاذ حياته، ركضتُ نحوه أناديه ليُنقذ آدم، وكانت صدمتي حينما رأيت الجسدَ المسجّى على الفراش، أغمضت عيني لبرهةٍ علّني أستيقظ من الكابوس الذي أعيشُه الآن، فتحتهما فوجدتُ بيلّا، تمنّيت لو أنّه محْض كابوس!

بدأتْ أنفاسي تنسحبُ منّي رويدًا رويدًا، رفعت وتيرة تنفّسي ولا جدوى، يبدو أنّني فقدتُ الوعي، لا أذكرُ سوى أنّني فتحت عيني لأجد طبيبةً تُحاول إفاقتي، تذكّرت بيلّا فجحظت عيناي، اقتربت من سريرها، أخي مازال يفعلُ ما بوسعه لينقذها هو وطبيبةٌ أخرى، وهي كأنّها في عالمٍ آخر، تُتمتم بصوتٍ واهن مُتقطّع «يـ يـارب، يـا الله».

هتفتُ بخوفٍ وأنا أُمسكُ يدَها «أرجوك يا حمزة، افعلْ شيئًا، لا تدعها تتألّم»

ثمّ نظرت لها بلوعةٍ، ودموعي تلسعُ خدّي، قبّلت كفّها وقلت «لا تخافي حبيبتي، كلّ شيءٍ سيكون على ما يُرام، ستكونين بخيرٍ يا توأمَ روحي».

تذكّرت آدم فنظرتُ نحوه، رأيت الطبيبة ترفع الملاءة لتغطّي بها وجهه.. ارتجفَ القلم في يديها، لكنّها أمسكته بقوةٍ، وتابعت دون توقفٍ:

«شعرت أنّ أحدًا غرس سكّينًا في قلبي، تركت كفّ بيلّا وهرولت نحو آدم أُبعدُ الطبيبةَ عنه، وأكشف وجهَه صارخةً «ماذا تفعلين؟!» أجابت بأسى «آسفة فقدناه»، وكأنّها سحبت مع جُملتها كلّ الأكسجين الموجود بالغرفة، أسمعُ الأصوات من حولي كالمحْبوسة في غرفةٍ من زجاج، لم أفقْ من صدْمتي بعد، وسمعت أخي يصرخُ بـحرقةٍ « يااا الله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون» تجمّدت في مكاني، ظللتُ أُتابع المشهدَ من بعيدٍ خائفة من الاقتراب، رغم أنّي أعلم جيدًا مهْما تأخّرت أو هربت نفذ أمر الله!

حاولتُ الاقتراب لكنّ قدماي ثقيلتان، حاولتُ ببعض القوّة التي مازلت أملكُها فوقعتُ أرضًا، أسرع أخي وأسندني، ضمّني إلى صدره وهو يبكي فهمستُ بخوفٍ «بيلّا بخير، أليسَ كذلك يا حمزة؟» شدّ ضمّته على رأسي وقال بصوتٍ مُتهدّج «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»، علمت أنّ شكّي في محلّه فتحشرجت روحي في صدري، ابتعدتْ عنه، وحاولت أنْ أقترب منها، كدت أسقطُ لوْلا أن أسندني إليها، ضممتُ رأسها، وسألتها بصوتٍ مُتحشرج:

«هل كنتِ تضمّينني هذا الصباح لتودّعيني يا بيلّا؟! لن ترحلي، أليس كذلك؟ أين وعدنا يا توأم روحي؟ بيلّا أرجوكِ أجيبيني.. آدم مات للتوّ يا بيلّا، مَن سيخفّف عنّي ألمَ موْته؟ مَن سأبكي على صدره؟ إن رحلتِ أنتِ فكيف أعيش؟ ليتني سمعتُ ما قاله آدم، ورحلنا» صرخت بحرقةٍ «أجيبيني يا بيلّاااا كيف سأعيش من دونك بيلّاااا».. ربتَ حمزة على كتفي وهو يبكي، فسألت بهذيانٍ «بمَ يشعر الإنسانُ حينما تخترق الطلقةُ صدره يا حمزة؟ هل يتألّم أم يتخدّر جسده ولا يشعر بشيءٍ؟ هل شعرت بيلّا بالألم أم خدّرتها الرّصاصة فنامتْ باطْمئنان؟ أشعر أنّ روحي تخرج من جسدي يا حمزة، لا أستطيع التنفّس حمزة، أآ أنـ «

بدأت الأضواءُ تتراقصُ أمام عيني حتّى نزلت غلالة بيضاء حجبتْ عنّي الرّؤية، كنت سأهمسُ لأخي أنني أصبحت عمياء، لكن لساني كان ثقيلًا، اسودّتِ الدّنيا أمام عيني، ثمّ بعد السواد لم أعدْ أرى أو أشعر بشيء..»

توقّفت عن الكتابة، تركتِ القلمَ من يدها، أصابَها ضيقٌ في التنفس، فكّتِ الوشاح الذي تلفّه حول جيدِها، استندت للحائط وفتحتِ النافذة، وقفت تلتقط أنفاسَها اللاهثة، وكأنّها خرجت للتّو من معركةٍ حامية، وأيّ معركةٍ أشرس من التي تخوضُها مع نفسك! موتٌ بيلّا أنساها آدم، أنساها أيّ حزنٍ مرّ في حياتها، ترى أمام عينيها شريطَ ذكرياتها معًا، ترنّ ضحكاتها في أذنيها، تتذكّر ما عاشته بعد موْتها، فقدت النّطق لأشهرٍ، وبعدما عادت إليها حروفُها حبستها بإرادتها، لم تكن تتحدّث لأحد، تخرج من مصحةٍ نفسيةٍ لأخرى، ومن طبيبِ نفسي لآخر دونَ جدوى، وكأنّهم دفنوا روحها مع توأمِها! عاشت لخمْسِ سنواتٍ جسدًا بلا روحٍ، فقط تعيش على ذكرياتها معها، وطيفها الذي يزورها كلّ ليلةٍ وتتحدّث معه كما اعتادت أن تتحدّث معَها، رغم الألم الذي مازالَ رابضًا في قلبها شعرت براحةٍ بعدما واجهت وجعَها، وقصّت ما حدث، حتّى وإن كانت هي الوحيدة التي ستقرأ الحكاية! يكفيها أنّها خرجت من محبسها.

سمعتْ أذان الفجر يشقّ هدوء الليل فابتسمت، توضّأت، ارتدتْ زيّ الصّلاة، واتّخذت تجاه القِبْلة، وحينما سجدتْ قالت بصوتٍ مُتهدج «يا ربِّ، امْنَحني القوّةَ لأبدأ من جديد».

***

ورائحةُ الشّوقِ عند اللّقاء كرائحةِ الأرض بعد المطر
لأنّ حياةَ الثّرى بعض ماء وتحيا القلوبُ ببعض البشر

الشّاعر أحمد شوقي

كيڤوك

يناير ٢٠١٦

صعدَ إلى سطح البناية، اقتربَ من عشّة الحمام، فتح الأبواب، ثمّ وضع أُصبعيْه في فمِه، وظلّ يُصفّرُ حتى طار الحمام، تابعهم وهُم يبتعدون بغبْطةٍ، كم تمنّى لو أنّ له جناحيْن يُحلق بهما في السّماء كيفما شاء!

على الأقلّ وقتَها كان سيجدُ «كيڤوك» التي أرهقته في البحث عنها، تنهّد ثمّ جلسَ على حافّة السّور يتأمّل السّماء والمنازل من حوله، أصبح يتنفّس بحرّيّةٍ بعدما قامت الثّورة وخلّصته من قيْد النّحراوي الذي جمع أمواله وفرّ هاربًا خارجَ البلاد، كما تخلّص من سطوة رفعت واستغلاله، كسر كلّ القيود التي كانت تخنقُه، حتى أنّه قرّر ترك القرصنة الإلكترونية، تركها منذُ خمْسِ سنواتٍ بلا رجْعَة، وعمل في إحدى شركات الحواسيب، يشعر بالحنين الجارف إلى البيت القديم، قرّر كثيرًا أن يعود إليه لكنّه أضعف من تنفيذِ هذا القرار، أضعف من مواجهة المكان وحده من دون أمه وكيڤوك، رغم أنه ذهب إلى هناك منذ سنواتٍ، اشترى بيتهم القديم قبل أن يسكنه أحدٌ آخر، دخل البيت ففُتحت أبواب الذكريات، وجد جانبَ الباب خطاباتٍ كثيرةً، جلس على الأرض وجمعَها، كلّها من كيڤوك، تسأل عنْه، تشكو منْه.. وفي آخر خطابٍ أخبرته أنّها ستكفّ عن انتظاره، عاتبته على هجره وخذْلانه، ذكّرته بوعْده فأبكته كلماتُها، سأل عنها في المنطقة فلم يجدْ أحدًا من الجيران القُدامى، لم يكن هناك سوى أبناءِ صاحب البيت، وهُم لا يتذكّرونها؛ لا هي ولا أهلها، بحث عنها كثيرًا، ودونَ جدوى.

أغلق البيتَ وفرّ هاربًا من عتابها، من يومِها لم يزرِ المنطقة ولم يذهب لبيتهم، فكلّ ركنٍ هناك سيُذكّره بخذْلانه لها، وبوعْده الذي لم يَفِ به.

***

كانا جالسيْن على المائدة، أمامَها طعام الإفطار لكنْ لا شهيّة لهما، يعبثان في الأطباق في شرودٍ حتّى سمعا «صباح الخير».

لم يُصدّقا أذنيْهما، هل حقًّا ابنتُهما هبطت من غرفتها، وتقول «صباح الخير»؟ هل بالفعلِ هي مبتسمة، أم أنّها يتوهّمان؟!

تابعاها بذهولٍ وهي تقترب، طبعت قبْلَة حانية على وجنَةِ أمّها، وأخرى على وجنَةِ أبيها، ثمّ جلستْ على كرسيّها، وقالت «أنا جائعة جدًّا، من فضلك أمّي ناوليني قطعة جبن»، تهلّلت أسارير أمّها، وهي تُناولها طبقَ الجبْن، وتُقرب منها باقي الأطباقِ الموضوعة على المائدة، كانت تأكلُ بنَهمٍ وكأنّها لم تذقِ الزّاد منذ سنوات!

وهُما مازالا يتأمّلانها، والبسمةُ الصّافية ترتسم على وجهيْهما، قالت:

_ ألنْ تأكلا معي؟

ردّ أبوها فرِحًا:

_ شبعْنا بعدما رأيْناكِ تبتسِمين وتأكلين، شبعْنا بعدما سمعنا الحياةَ

تدبّ من جديدٍ في صوتِك يا يقيني.

تركتْ قطعة الخبز من يدِها، وضمّت كفّ أبيها، وبيدها الأخرى ضمّت كفّ أمّها، وقالت:

_ شكرًا لأنّكما تحمّلتماني كلّ هذا الوقت، وآسفة على كلّ لحظةِ حزنٍ شعَرتما بها لأجلي، أعدُكما أنّني سأفعل كلّ ما بوسعي، لن أقول لأعود كما كنتُ؛ لنكُن صريحين.. لا شيء سيعودُ كما كان! لكنْ سأحاول أن أكون طبيعيّة قدْرَ المُستطاع.

سألَ أبوها بفرحٍ:

_ وهذا كلّ ما نريده يا عزيزتي، هل ستفتحين المقْهى من جديد؟

تنهّدت ثمّ أجابت:

_ لا.. أظنّني مستعدّة لهذه الخطوةِ الآن يا أبي، ربّما فيما بعد.

_ حسنًا، وماذا ستفعلينَ في حياتك؟ فكّري معَنا بصوتٍ عالٍ.

لكزتْه أمُّها قائلةً:

_ ماذا دهاك يا محمّد! دعْها وشأنها، تحتاج لفترة نقاهة.

ثمّ التفتتْ لابنتها، وسألت:

_ لنسافرَ حبيبتي إلى أيّ مكانٍ تختاريه، أخبريني إلى أينَ تريدين السفر؟

ابتسمتْ بهدوءٍ، ثمّ قالت:

_ ليس لديّ مخطّطات الآن يا أبي، ولا أريد السفرَ لأيّ مكان يا أمّي سوى مكانٍ واحد أشعرُ أنّني بحاجةٍ لزيارته وحدي.

نظرتْ لأبيها، ثمّ تابعت:

_ هل تسمح لي بالذّهاب لبيتنا القديم في الإسماعيلية؟

وافقَ على الفور، نهضَ مسرعًا، وأحضرَ مفتاحَ البيت قبل أن تُغيّر رأيَها، اقترحَ أن يوصلها بسيارته، لكنّها رفضت، تريد الذهابَ وحدها بالمواصلات العامّة، طمأنتْهما أنّها ستكون بخيرٍ وحدها، أعدت حقيبة صغيرةً، ودّعتهما ثمّ رحلت.

***

مازال جالسًا على حافّة السّور مُغمضَ العينين، حينما لسعَه حجرٌ صغير في رأسه، فتح عينيْه متأوّهًا، نظر خلفه فوجدَ طفلًا يبدو أنّه في الخامسة من عمره، ابتسم له، اقترب منْه وسأل:

_ مـ ما اسسمك يا صغير؟

عقد الطفلُ حاجبيه، وقال بغضبٍ:

_ أنا لستُ صغيرًا، أنا رجلٌ كبير.

ضحك عاصم، غضبُه ذكّره بغضبِ كيڤوك حينما كان يُناديها بـ «الصغيرة»، تصنّع الجديّة، ثمّ سأل:

_ حححسنًا يا رجل، أخبرني مما اسسمك؟

_ اسمي عاصم صالح.

اتّسعت عيناه دهشةً، ثمّ تفاجأ بـ دعاء واقفةً عند باب السطح، اقتربت منهما تصرخُ في وجه الصغير، وتجذبه من يدِه:

_ ألم أقلْ لك لا تصعد إلى هنا!

أفلتَ يدَه من قبضتها وهربَ منها لأسفل، تركَها للمواجهة، آخر ما عرفه عن دعاء أنّها سافرت مع زوجها للكويت، ولم يرَها منذ يوم زفافِها، ساد الصّمتُ لثوانٍ حتى قال:

_ كـ كيف حححالك؟

_ بخيرٍ الحمدُ لله، وماذا عنك؟

_ بـ بخير، ججميل ابنك حححفظه الله لكِ.

_ شكرًا لك.

لم يجدْ من اللائق الوقوفَ معها وحدَهما؛ لذا أنهى الحوار بلطفٍ، ثمّ عاد لشقّته.

***

تركتْ سيارتها وركبتْ سيّارةَ أجرة إلى مترو الأنفاق، انصهرتْ وسط الزّحام، كانت تتأمّل وجوهَ الناس وكأنّها ترى بشَرًا للمرّة الأولى!

تشعرُ في قسماتِ وجوههم أنّ هناك حكاية، ثمّة حزن يُخبئه عن الجميع، ثمّة انهزام أثقل أكتافهم فأصبحت مُتهدّلة دون أن يشعروا! أوْ ربّما هُم طبيعيّون، هي فقط رأتِ انعكاسَ نفسِها فيهم.

انْتزعَها من شرودها أحدُ الباعة المتجوّلين، ألقى في حِجرها- عنوةً كغيرها من الجالسين- كيسًا من حلوى الكراميل، النّاس ينظرون أمامَهم بلا اهتمام، اعتادوا أن يلقي الباعةُ بضاعتهم ثمّ يعودون لجمْعِها، تأمّلت الكيس، ارتسمتِ ابتسامةٌ مريرة على شفتيها، ثمّ نادتِ الصّبي البائع، ودفعت له ثمنَ الكيس، دسّته في حقيبتها، وعادت تقرأ الحكاياتِ في وجوه الناس، وصلتْ للمحطّة الأخيرة، خرجتْ من محطّة المترو.. تمضي بلا هدف، كان الزحامُ يدفعها للأمام حتّى سمعتْ صوتًا جهْوَريًّا ينادي «الإسماعيلية... الإسماعيلية»، العربةُ كاملة ينقصُها شخصين في المقدمة، ركبتْ ودفعت ثمنَ الكرسيّين، أسندتْ رأسَها على زجاج النافذة بعدما تحرّكت العربة، لكنّ النّوم مازال يُجافيها، كلّما حاولت إغماض جفنيها تشعرُ بالألم لذا لم تعدْ تُحاول، ظلّت شاردة حتى وصلت إلى الإسماعيلية، ركبتْ سيارة أجرةٍ للبيت، وصلتْ فملأ قلبَها الحنينُ لكلّ شيءٍ مضى، رغم تغيّر تفاصيل منطقتهم إلّا أنّ الروح القديمة مازالت تسكنُه، ربما السبب هو بقاءُ بعض البيوت كما كانت، مثل بيتهم، وقفت أمام البيت، تأمّلت ورشةَ أبيها القديمة

بعيونٍ لامعة، ترى طيفَها وهي تجري في الشارع وتلهو مع أطفال الجيران، ترى كلّ لحظةٍ جمعتها هي وبيلّا هنا في هذا المكان، مرّت أمام مقهى إنترنت، تذكرُ جيدًا أنّ مكانه كانَ محلّ عطارة قديم، جالت بخاطرها ابتسامةُ صاحبِه العجوز، تشمّ الآن رائحة البخور الذي كان يطلقه في شارعهم، وجانبه كان دكانُ جارهم العمّ متولي، الرجل الطيّب الذي كلّما رآها هي وبيلّا يناديهما ويُعطيهما حلوى لذيذة، تكاد تقسمُ أنّها الآن تتذوّق طعمَ حلواه في فمِها!

هذا المكانُ خلّد لها ذكرياتٍ لا تُنسى، اقتربت من البيت، وضعتِ المفتاح في رتاجِ البوّابة الصّدئة، أصدرت البوابةُ- وهي تنفتح- صريرًا عاليًا، لم يكنْ مزعجًا لأذنيها؛ بل شعرتْ أنّ البوّابة تُهلّل فرحًا بعودتها.

صعدتْ للبيت، فتحت الباب ودخلت، فقابلتها موجةٌ من الحنين الجارف التي دفعتْ دموعَها للسّقوط، تتأمّل جدران البيت وأثاثَه بعيونٍ باكية، لمحتْ راكيةَ أبيها مُطفئةً في أحد الأركان، اقتربت وعبثتْ في الرماد بأصابعها، وكأنّ هذه اللمسة أعادتْها لجلسات أبيها بعد صلاة العشاء، مازالت تذكرُ حكاياته، سَرَى الدفء الذي كانت تشعر به يومَها في جسدها فأشعرَها بالنّعاس، ستنام لبعضِ الوقت.. لكنْ قبل ذلك عليها أن تُطمئنَ والديْها على وصولها، أخرجتْ هاتفها من الحقيبة، طمأنتْهما ثمّ لمحت رسالةً لم تفتحها من البارحة، فتحتْها فضربت رأسَها براحةِ يدِها وأسرعت في إخراج الحاسوب من حقيبتها، قبل الثورة أنشأتْ صفحة كانت تنشر فيها الانتهاكات وتفضحُ الفاسدين، وبعدَ ما مرّت به أغلقتها، ولأنّ الفساد

مازال ينخرُ في عظام الوطن أعادتِ الصفحةَ منذ يومين، وبدأت تعمل من جديدٍ، تجمع المعلوماتِ عن الفاسدين، تُسلّط الضوء عليهم وتفضحهم، وهذه الرسالة تحوي ملفًّا ومقطعًا مصوّرًا يفضحُ رجلَ أعمالٍ يبيع الحليب الفاسدَ للأطفال، أوصلت الهاتف بالحاسوب، نقلتِ الملفّات وفتحت الإنترنت الهوائي، ثمّ الصفحة، وكتبت منشورًا جديدًا أرفقت به صور الملفّ والمقطع، ثمّ أغلقت الحاسوبَ فأطبق النعاسُ جفنيها، نامت على الأريكة في مكانها.

***

كان يُنهي بعضَ أعماله على الحاسوب حينما سمع طرقًا على الباب، فتح فوجدَ علاء، قطّب جبينه وقال بحدّةٍ:

_ مماذا تريد؟

_ هل ستتحدّث أمام الباب هكذا؟! ماذا دهاك! لم يكنْ ما بيننا عشرة يوم أو اثنين يا عاصم يا ابن الأصول!

_ ععلاء قل ببإيجازٍ مماذا تريد؟

_ لا تقلق، أنا لم أعدْ رجلَ النّحراوي، ولا حتّى أعرف أين أراضيه، هيّا يا عاصم؛ مللْتُ الوقوفَ أمام الباب.

زفرَ بنفادِ صبرٍ، ثمّ تنحّى جانبًا، وأفسح له الطريق، وهو يقول:

_ للديك نصصصف سساعة.

دخلَ إلى صالة البيت، رأى حاسوبَ عاصم، استأذنَ في استخدامه، ودونَ أن ينتظر الإذنَ فتحَ المتصفّح؛ فوجد حسابَ عاصم عبر الفيس بوك مفتوحًا، كتب اسمَ إحدى الصفحات في مربّع البحث، ظهرت الصفحة ففتحَها، كان عاصم يُتابع في صمتٍ حتّى نفدَ صبرُه، فأغلق شاشة الحاسوب بعنفٍ، وقال:

_ أأنا لليس لدي ووقت، ههل سسستخبرني مماذا تتريد أم سسترحل؟

_ حسنًا حسنًا، لا أريد منْك سوى أنْ تخبرني بمكان صاحبِ هذه الصفحة، ويا حبّذا لو استطعت إغلاقها، ولا تقلق حقّك محفوظٌ، اطلبِ المبلغَ الذي تريده.

كظمَ عاصم غيظَه، وقال بهدوءٍ:

_ أخْخرج ممن هنا يا ععملاء.

_ الأمرُ ليس له علاقةٌ بالنّحراوي، إنّه رجلٌ آخر، رجل أعمالٍ شريف، وهذه الصفحةُ تنشر أكاذيبَ عنه، وتلوّث سمعتَه، ومع الأسف الصفحةُ لها متابعونَ كُثر.

ضحكَ بسخريةٍ ثمّ قال:

_ ووهل تتعرفُ ششرفاء؟! أأنا تركت الـ القررصنة، اررحل ممن

هنا يا ععلاء.

قالها ثمّ ذهب نحْو باب البيت، فتحَه وأشارَ له بالخروج وهو يحدجه بنظراتِ احتقارٍ، فلملَمَ الآخر الباقي من كرامته، ورضحَل، صفَقَ عاصم البابَ خلفه بعنفٍ، ثمّ عادَ لمكتبه، زفر بغضبٍ وهو يرفعُ شاشة الحاسوب، ألقى نظرةً سريعةً على الصّفحة التي فتحها علاء، قرأ نصفَ المنشور الأوّل بملل، كان سيغلقُ الصّفحة، ثمّ خرجت عيناه من محجريهما وهو يقرأ الاسم في ختام المنشور، مرّ على باقي منشوراتِ الصفحة، وكلّها موقّعة باسم «كيڤوك»، تراقصَ قلبُه فرحًا، حاول أن يُراسلها لكنّ رسائل الصّفحة مغلقة؛ لذا اضطرّ أن يلجأ للقرْصَنة، سيعود هذه المرّة من أجل إيجادها، قامَ بتنفيذ الخُطوات التي يحفظُها عن ظهْر قلبٍ وهو يدعو الله أنْ تكونَ حقًّا هي.. وكانت المفاجأة، المكان الذي نُشر منه المنشور الأخير هو نفسُ مكان البيت القديم، نظرَ للتّوقيت فوجدَه صباح اليوم؛ لذا- ودون تفكيرٍ- حمَلَ حقيبته، سافرَ إلى هناك سريعًا وقلبُه يدعو أن يجدها هذه المرّة.

***

اسْتيقظتْ من نومِها، فركَتْ عينيها بأناملِها بلطفٍ، حاولت أن تنهض، تأوّهتْ من الألم الذي سَرَى في ظهْرها، شعرتْ بالجوع فعبثت في حقيبتِها، لم تجدْ شيئًا سوى كيسِ الكراميل الذي ابتاعتْه من عربة المترو، حينما رأتْه اتّجهت عينُها تلقائيًّا صوْبَ سطح البيت، قبضتْ على بعض الحلْوى، وضعتْهم في جيب فستانِها، ثمّ صعدتْ للسّطح، هبّت نسمة باردة جعلتْ

جسدها يرْتجف، عقدتْ ذراعيها وظلّت تُمرّر راحتا يديها على عَضُدِها لتشعر بالدّفء، نظرت نحْو مكانٍ فارغٍ، وابتسمت بمرارة، اقتربتْ هذه المرّةَ بلا خوفٍ وجلست، لم تعدْ تشعر بالوجع، فقد ذاقت ما هوَ موجعٌ أكثر ممّا كانت تشعر به هنا!

رأتْ حفرةً صغيرة في السّور، فاستحضرت أذنها صوتها وهي تقول:

«أتعلم! إنني أرسلُ خطابات إلى الله؟»

ضحكت، تذكّرت الحلوى، أخرجتْ من جيبها واحدة، قلّبتها في يدها، منذ زمنٍ وهي تُحرِّم على نفسها أكلَ حلوى الكراميل، أقنعت نفسَها أنّها حلوى مقيتة تجلبُ وجعَ القلب!

لاحتِ ابتسامةُ سخريةٍ جانب شفتيها، سمعت صوته يهمس «أخبرني جدّي أنّ حلوى الكراميل تحارب الحزنَ، فأصبحت كلّما شعرت بحزنٍ أتناولها وأُغمضُ عيني فيُنسيني طعمُها كلّ شيء، جرّبي؛ أظنّك تحتاجينها الآن»

دسّت الحلْوى في فمِها وأغمضتْ عينيها، فرَدَت ذراعيها فأشعرتها نسائمُ الهواء أنها تُحلّقُ في السماء، مازالت تُغمضُ عينيها، تحسّست جيدَها، رغم الغضبِ العارم الذي يملأ قلبَها نحوه لم تستطعْ أن تُفرّط في الخاتم لأنّها تعلمُ جيدًا أنّه كان أغلى ما يملك، تردّدت جُملتُه في أذنيها..

«احْتفظي به حتّى يأتي اليومُ الذي نلتقي فيه هنا وأضعُه في أصبعك»

سألت نفسَها «لقدْ محوْت كلّ ذكرى كانت تربطني به منذ زمن فلِمَ مازلت مُحْتفظة بالخاتم حتى الآن؟!» لم تجدْ إجابةً فتركت الخاتمَ وعادت تفردُ ذراعيْها، وتُحلّق.

«كيڤوك»

تجمّدت فجأة، ثمّ بعثَ هذا الصوت إلى قلبها دفئًا غريبًا، مِن البديهي أنْ تفتح عينيها، وتنظر نحْو مصدر الصّوت، لكنّها خافت، تكرّر النداء فتنهّدت بحرقةٍ، وفتحت عينيها ببطء، التفتتْ نحوه فارتجفَ جسدُها، مازالت ملامحُه كما هي لم تتغيّر، اضطربتْ مشاعرها فلم تعدْ تعلمُ بما تشعرُ في هذه اللحظة، اقتربَ منها وهو يبتسمُ ملء شدقيْه رغم الدموع التي تسيلُ من عينيه، قال:

_ أجل، إنّها أنتِ كيڤوك، لم تتغيّر ملامحُك.

استجدتْ دموعَها فلم تنصفْها، نظرتْ إليه بعينيْن جامدتين، ثمّ ولّتْه ظهرَها، اعترض طريقَها وقال:

_ قرأت كلّ خطاباتك، أعلمُ ما عانيتِه بسببي، قولي لي ماذا أفعل لتبردَ نارُ قلبك، ويُسامحني؟

صمتَتْ برهةً تتأمّله بغضبٍ، ثمّ صرختْ في وجهه:

_ كيڤوك التي تبحثُ عنها صعقَها البرقُ هنا وهي تنتظرك، من المُفترض

أن تكون تحتَ الثّرى الآن، لوْلا أبوها الذي أنقذَها، لم تنجُ من الموت؛ بل وُلدت من رحم الخذلان فتاة أخرى غيْر التي بحثتَ عنها، بسببك ذقتُ مرارةَ التعلّق لسنوات، وحينما بدأتُ أُشْفَى من ألمِك عاجلتني الدّنيا بمرارةٍ أكبر، استفقتُ من هذه المرارة اليوم، لم أعدْ تلك السّاذجة التي رميت لها وعْدًا كاذبًا ورحلت، سأبدأ من حياةٍ جديدة لا أعلم ما سيحدث فيها، لكن ما أعلمُه جيدًا أنّك لن تكون جزءًا من هذه الحياة؛ فارْحَل من حيث أتيت.

ولّتْه ظهرَها، وقبل أن ترحلَ عادت إليه، جذبتِ السّلسلة التي تحيط جيدَها بعنفٍ حتّى انقطعت ألقتْها في وجهه، وهي تقول:

ـ هذا كان أمانةً ثقيلة على قلبي، حفظتها لأنّني ابنةُ أصولٍ، وأعلمُ كم هو غالٍ عندك.

أنهَتْ جُملتَها، ثمّ رحلتْ إلى البيت، صفقت البابَ وتمدّدتْ على الأريكة، تُحاول استيعابَ ما حدث للتّو، هل بالفعل عاد؟! هل رأتْه واقفًا أمامها حقًّا أمْ تتوهّم؟ كانت تَدَّعي التماسكَ أمامه، بينما ينهار بداخلِها ألفُ جدار!

تمنّت في هذه اللحظة أنْ تبكي، لكنّ مآقيها قد جفّت منذُ زمن! شعرتْ بها السّماء فانْهمرت قطرات المطر، كأنّ تلك القطرات دموعُها، شَعرت ببردٍ قارص، أغلقتِ النّافذة ثمّ عادتْ للأريكة وكوّرت جسدَها، ثوانٍ ورحَمها اللهُ بالنعاس كي لا تُصيبُها كثرةُ التّفكير بالجنون.

***

استيقظتْ في المساء، كان الظلامُ دامسًا حوْلها، تحسّست مكانَ هاتفها، أضاءت شاشتُه وتحسّست على ضوئه الخافتِ طريقها لمفتاح الإنارة، أضاءتِ الصالة، وقبل أن تعودَ للدّاخل لمحت ورقة، يبدو أنّ أحدهم ألقاها من أسفل عقبِ الباب، انحنتْ والْتَقطت الورقةَ فقرأت:

«أعلمُ أنّكِ غاضبةٌ منّي، لن أطلبَ السّماح منكِ؛ لكنْ أرجوكِ افتحي الباب واقرئي ما يحويه الصّندوقُ الذي تركته لك».

أضاءتِ اللّمبة الموضوعة أمامَ الباب، فتحت جزءًا منه بحذر، فوجدت صندوقًا صغيرًا من الكارتون أمامه، أدخلتِ الصّندوق وأغلقته، كانت ستفتحُه لوْلا صراخ معدتها، عدلت حجابَها وذهبتْ لتشتري شيئًا تأكله، وبعدما أنهتْ طعامها، اطمأنّت على والديها، ثمّ رفعَتِ الصّندوق، ووضعتْه على المنضدة، وجدتْه مليئًا بالخطابات، حزمة منهم مربوطة بحبلٍ صوفي ويبدو أنّها قديمة جدًّا، مربوطٌ معها ورقةٌ.. حبرُها لم يجفّ بعْدُ كُتب عليها «هذه الخطاباتُ التي كنت أكتبُها لكِ، ولم أستطع إرسالها».

وضعتْها جانبًا، أمسكتْ حزمةً أخرى مُرْفقة بورقة كُتب عليها «وهذه قصّتي وما حدث لي بعدما تركتك ورحلتُ مرغمًا أنا وأمّي».

ثمّ ورقة مطويّة في نهاية الصّندوق، كتب عليها:

«لا تفتحي هذه الورقة قبل أن تقرئي كلّ الخطابات».

نفّذت طلبَه؛ أمسكتِ الحزمة التي تحوي قصّته، فكّت الرباط وبدأت

تقرؤها، مرّت السّاعاتُ ومازالت تقرأ، تتغيّرُ ملامحها مع كلّ سطر، تارة يتقلّص وجهُها، وأخرى ينبسِط، تارةً تتقوّس شفتاها بألمٍ، وأخرى تبتسم، حتّى وصلتْ عند تفاصيل موتِ أمّه، تعرف جيدًا كمْ هو متعلّق بها، تذكّرت رحيل بيلّا، بكتْ بحُرقةٍ وعلتْ شهقاتُها، لكنّها لم تتوقّف عن القراءة، قرأت الخطاباتِ التي كتبَها لها، كم تألّم في حياته! لكنّها كانت أكثرَ حظًّا منه، على الأقلّ هي وجدتْ مَن يحنو عليها، ويُخرجها ممّا عاشته، أمّا هو فكان وحيدًا وظلّ إلى الآن كذلك، انتهت من القراءة في صباحِ اليوم التالي، مسحتْ دموعَها والتقطتِ الورقةَ المطويّة، فتحتها فوجدَت:

«الآن، وبعدَ أن علمتِ كلّ ما مررتُ به في غيابِك، أظنّ قلبكِ الكبير سيُسامحني يا كيڤوك، أتعلَمين؟ أصابتْني التأتأةُ يوم وفاة أمّي، وتفاجأتُ اليوم حينما رأيتُك أنّ لعثَمَة حروفي اختفتْ كأنّما حدثت معجزة، وعادت أمّي من جديد! أنا لا أريدُ أن أفقدكِ مرّة أخرى، لن أرحلَ من بيتنا حتى تُسامِحيني، أرجوكِ.. أعطيني فرصةً أخرى لأثبتَ لكِ أنني جديرٌ بك، هل تقبَلين الزّواج بي يا كيڤوك؟»

ضحكتْ رغمَ الدّموع التي تسيل من عينيها، وبتلقائيّةٍ هرولت نحْو غرفتها لتضُمّ بيلّا، وتُبشّرها بفرحتها، لكنّها توقّفت في منتصف الطريق، وتلاشتِ ابتسامتُها، ثمّ تبدّلت بابتسامةٍ مكسورةٍ وهي تضمّ نفسها، التمعت في ذهنها فكرة.. التقطتْ ورقةً وقلمًا، كتبتْ شيئًا ثمّ صعدتْ لسطح البيت، تسلّلت في هدوءٍ لسطح بيتِه، هبطتِ الدّرجَ ضاحكةً، تشعر أنّها عادتْ طفلة

من جديد، اقتربتْ مِن الباب على أطرافِ أصابعها، انحنَتْ ومرّرت الورقةَ من أسفلِ عقبِ الباب، ثمّ ركضتْ عائدةً إلى البيت، أغلقتِ البابَ ووقفتْ خلفَه تلتقط أنفاسَها وتضحكُ بمرحٍ لم تشعرْ به منذ زمنٍ بعيد!

***

جالسًا في صالةِ البيت يصارعُ الذكريات، ويُحاول تطبيبَ كلّ الجروح التي تفتّقت في قلبه حتّى رأى ورقةً أسفلَ الباب، فتحه سريعًا فرأى خيالها وهي تركضُ نحْو السّطح، ضحك ثمّ انحنى، والتقطَ الورقة، فتحها فوجد..

«اخترتَ مفتاحًا خاطئًا لفتح الباب، ستجدُ رقمَ أبي في ظهر الورقة، أعتقدُ هذا هو المفتاحُ الصحيح»..

أعاد قراءةَ الورقة، وقلبُه يتراقص فرحًا، هبطَ على الأرض ساجدًا سجدة شكرٍ لله، نهض منْها، والتقط هاتفَه، اتّصل برقم والدِها وحدّد موعدًا لزيارته.

***

أسفَرَ الصّبحُ، الشمسُ تمسحُ بكُلّ لطفٍ على جَبين الأرض حينما كانت تجلسُ جانبَ القبر بملابسَ سوداء مُغبّرة، أسندتْ رأسَها على اللوحة الرّخامية- المحفور عليْها اسمُ بيلّا- وكأنّها تسندها على كتفِها، ثمّ بدأت تُمارسُ عادتها التي لم تنقطعْ عنها مذْ فارقتها توأمُ روحها، قصّت لها كلّ جديدٍ طرأ على حياتها وكأنّها تسمعها وتردّ عليها!

حكتْ لها عن عودةِ عاصم، تخيّلتها تقفزُ فرحًا، تضمّها، تطبع قبْلةً على جبينها، ثمّ تضمّ وجهَها بكفّيها قائلةً بفرح «كبرتْ صغيرتُنا»، في هذه اللّحظة اجتمع النّقيضان...

ضحكتْ رغمَ بُكاء عينيها، ثمّ همست «فراقك أحرقَ المراحلَ الفاصلة بين الشّباب والمَشيب، صارتْ روحي عجوزًا يا بيلّا».

دنتْ من القبرِ أكثر، ودّتْ لو تخترقُه وتنام بين ذراعيها ولوْ لثانية!

أخبرتْها بما سترتديه، كانت تسألُها عن رأيها، وتسمعُ الردّ في قلبها، كأنّها واقفةٌ أمامها تُحاورها!

ودّعتها، وقبلَ أن ترحلَ نظرتْ للقبر نظرةً أخيرة، وهمستْ باسمةً:

«سأعودُ لأخبركِ بجَديدي في موعِدِنا يا بيلّا، لا تقلقي؛ لن أتأخّر...»

***

وفي الخامسِ والعشرين من يناير، كان يومُ الوفاء بالوعد، قرّرا أن يُعلنا ثورةَ الحبّ!

كانتْ ترتدي فستانًا أبيضَ أنيقًا رقيقًا، وهو يرتدي حلّةً سوداء، لم تحتجْ لَمساحيق التجميل؛ فقدْ زيّنت وجهَها ابتسامتُها المُشْرقة، في حفلٍ عائلي صغيرٍ ضمّ أهلَ يقين وأقاربَها، أمّا عنه.. فأتى وحدَه بلا أهل، أتى لتكون هي الأهلَ والوطن، عينُه لم تبرحْ وجهَهَا لحظة، رُفع المنديلُ وردّد الحاضرون «بارك الله لكُما، وبارك عليكما، وجمَعَ بينكما في خير».

أحقًّا بالفعل أصبحت زوجته؟! لم يتمالكْ نفسَه، جذبَها من يدِها إلى صدره، تنهّد بارْتياح وهو يشدّ ضمّته على رأسها، ضمّةٌ واحدة كانت كفيلةً بأن تُنْسيهما كلّ لحظةٍ ألمٍ مرّا بها في حياتهما، تذكّر الخاتمَ فأخرجه من جيب سُترتِه، مازال يضمّ رأسَها، وضعَ الخاتم في أصبعِها، وهمس في أذنها:

«ألم أخبركِ أنّ يومًا ما ستكبر أصابعُك، وتُصبح على مقاسِه وكأنّه صُنع من أجلِ أصبعُكِ فقط يا كيڤوك؟!»

لم تتمالكْ دموعَها، لا تعرف تصنيفًا لهذه الدّموع، ولا حتّى لمشاعرها في هذه اللّحظة، فقط ما تدركُه جيدًا أنّها لم تشعرْ يومًا براحةٍ كتلك التي تشعرُ بها الآن بين ذراعيْه، لم تعدْ تسمعُ شهقات المنْدَهشين من المشهد، ولا أصوات

الزّغاريد، ولا حتّى ضحكات الفَرِحين مِن حولها؛ هي- فقط-تسمعُ دقّاتِ قلبِه، تعزفُ لحنًا عذبًا تتمنّى أن تسمعَه طوالَ حياتها.

همس:

«أحبّك أيّتها الصّغيرة»

ضحكتْ بمرحٍ، وهمستْ بغضبٍ طفوليّ:

«ألمْ أقلْ لك: لا تنادِني بالصّغيرة مرّةً أخرى؟!»

[تمّتْ بحمْدِ الله]